المبحث الأول

البداوة في مقدّمات المديح

ومن أكثر مقدمات المديح شيوعاً ـ النسيب ـ الذي ذكر ابن قتيبة[1] ومن بعده ابن رشيق[2] وغيرهم ، أنَّه يستميل القلوب ويستدرجها لما بعده ، لما جُبِلَتْ عليه النفوسُ من محبَّة النساءِ وإلفهم ، وقد كان الحديث عن المرأة دائماً في الشعر العربيّ حديثاً ذا شجون ، يُكسب القصيدة وهجاً ودفئاً يضفيه الحبُّ على الشاعر ، ما يجعله يفتح بالنسيب في القصيدةِ باب الصبوةِ والذكرياتِ والشبابِ والصِّبا واللهو والدِّعة ، ويدلفُ من هذا النَفَس المنتشي إلى المدح ، ومن هنا كان النسيب من أجمل مقدّمات المديح .

وقد كان النسيبُ في أوائل قصائد المدح الأندلسيَّة مرتبطاً في وجوده بالوجدان العاطفي العربي البدويّ الذي يجدُ نفسَه في التغنّي بصباباتِ الهوى ، قبل التغني بمآثر الغير ، وارتبط الأندلسيُّون بهذه المطالع ، ارتباطهم بالتراث القديم ، وهوى الأجداد ، فقد كان هذا النسيب البدويّ في بداياتِ القصائد مفتاحاً لما أغلق من المعاني[3] ، وصوتاً دافئاً يسمع فيه نغم الحنين الشجيِّ ،

---

(١) انظر : أدب الكاتب ابن قتيبة ، ص١٤ .

(٢) انظر : العمدة ، ابن رشيق ، ٢٢٦/١ .
يقول ((وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وأن ذلك استدراجٌ إلى ما بعده)) .

(٣) سُئل ذو الرُّمة ، كيف تعمل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال : كيف ينقفل دوني وعندي مفتاحه؟ قيل له : وعنه سألناك ما هو؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب .
يقول ابن رشيق : فهذا لأنه عاشق ، ولعمري إنه إذا انفتح للشعر نسيبُ القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب ، انظر : العمدة ، ابن رشيق ، ٢٠٦/١.

ويفتح أبواب القول الشعري ، ولذلك فقد استعصى على الوجدان غير العربيّ فهم هذه الصِّلة بين الشعراء العرب والنسيب ، فوجدنا جارثيا غومث يقول : ((وإنَّه لمن الغريبِ ، أن نجد العرب الذين عُرفوا بالغيرةِ البالغةِ على نسائهم ، قد فرضوا على محبوباتهم هواناً قاسياً في هذه القصائد التي كانوا ينظمونها لغايةٍ ماديةٍ واضحة ، فجعلوا ذكرهنَّ سبيلاً للتخلُّص إلى هذه الغاية ، وجعلوا ذلك تقليداً يراعونه - في عنايةٍ كبيرةٍ أو قليلةٍ - في هذا المقصد الذي يتلخَّص في استدرارِ المكارم بالمدائح . . .)) [١] ، والشاعر العربي لم يفرض على المحبوبةِ الهوان حين افتتح بذكرها قصيدته ، وإنَّما قدَّمها في أوائل هذا الشعر المهم ، والقصيد الذي قد يخلُّده ويخلِّدها لأهميتها في قلبه ، كما أنَّه يصف هواه في الحبّ ، وسلطانها عليه ، وفي هذا المعنى قوّة وجدان تسمو بالعاطفة والروح ، وتجعل في القصيدة من خلال وصف الحبّ ولوعاتِهِ وسلطة الجمال على قلب الشاعر ، نَفَساً رقيقاً ووهجاً حانياً ، يُسلِمُ القصيدَ بوصف من يحبّ ويهوى إلى التغنّي بآلام الجوى ، أو إلى وصف تخطّي الصعاب من أجلها ، أو القدرة على الارتحال عنها ، كما أنَّه قد يدلفُ الشاعر بالنسيب إلى باب الذكريات ، والصبوات ، الذي قد يفضي به إلى بابٍ آخر هو التغني بالملذات وأيام اللَّهو ، ممَّا هو مرتبط بالانتشاء بالفخر ، الذي قد يدخله بنفسٍ قويٍّ إلى المدح ، ومن هنا كان وجود المحبوبة في أوّل القصيدةِ التي يطلب بها الشاعر أو يمدح ، تكريماً للحبّ ، وتكريماً لقوَّة هذه العاطفة على النفس العربيَّة التي تهوى ، ولا تخجل من أن تصرِّح أنها تهوى ، يقول ابن زُمْرُك [٢] :

وإنّي وإن كنتُ المنَّع جارُه ... لتسبي فؤادي أعينٌ وثغور

((والشاعرُ حين يذكرُ المرأة إنما يذكر رغبةً عزيزة من رغائب النفس ، ومن رغائب الفطرة ، وإنما كانت المرأةُ مثالاً لذلك ، وإشارةً إليه)) [٣] ، ولذا

---

(١) الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، إميليو جارثيا جومث ، ص٧٤ .

(٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٥ .

(٣) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص١٧٣ .

لم يكن كلُّ افتتاح بالنسيب ناجماً عن عشق وهوى ، فما كل من قال شعراً متيَّم[1] ، وإنما افتتح معظم الشعراء قصائد المدح بالنسيب لأنه يفتح باب القول ، وعليه تقوم القوافي ويُشيَّدُ القصيد ، ولذلك قال ابن فُركون[2]:

هذي قوافٍ على أسِّ النسيب إلى خطابِ عليكَ قد شيَّدتُ مبنَاهَا

ومن الأمثلة الكثيرةِ على هذه المقدّمات ، قصيدة لابن خفاجة ، جاءت مليئة بالإشارات البدويَّة ، مثل ذكر الأماكن الحجازيَّة والنجديَّة ؛ من (إضم) و (ذي سلم) و (طلح الجزع) و (السَّلم) [3] ونحى في هذا النسيب البدويِّ منحى العذريين فذكر طول الليل : (طال ليلي في هوى قمرٍ) [4] ، والطيف (وخيال لو سرى) [5] ، والاستسقاء لما في الأيام والمكان بـ (باكي الغمام) [6] ، والأرق (آهِ تحت الليل من أرقٍ) [7]، ((وهذا النوع من الغزل يأتي في مطالع المديح عادةً، وكأنَّ الشاعر بذلك يحاول زيادة التوهّج في جذوةِ عواطفه بإضفاء جوٍّ إيحائي معتمد على الانشداد الرُّوحي بين العربيّ وبين تلك الدِّيار التَّاريخيَّة ، إضافةً إلى ما فيها من قصدِ الرَّمز . . .)) [8] ، فالإشارات البدويَّة ومنها ذكر الأماكن في نسيب المقدّمات تُحمِّل الشعر وهجاً يسري من الشاعر إلى باقي عروق

---

(١) تضمين من بيت المتنبي الذي يقول فيه :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدَّم أكلُّ فصيح قال شعراً متيَّمُ

وهو مطلع قصيدةٍ مدح بها سيف الدولة . ديوان المتنبي ، ٦٩/٤ .

(٢) ديوان ابن فُركون ، ص٣٠٨ .

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص١٠٦ ، ١٠٧ .

(٤، ٥) ديوان ابن خفاجة ، ص١٠٦ .

(٦) المصدر السَّابق ، ص١٠٧ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص١٠٨ .

(٨) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، دكتور محمد مجيد السعيد ، ص١٦٢ .

القصيدة ، فيفتح له هذا الانشداد الروحي أبواب المعاني والصُّور ، فقال ابن خفاجة[1] :

قـل لمسـرى الـرِّيح مـن إضَـمِ[2] ولياليـنـا بـذي سَـلَمِ[3]
طـال ليلـي في هـوى قمـرٍ نـامَ عـن ليلـي ولم أنمِ

وفيها[4] :

ولـئن راودتُ مـن سـنـة لبمَـا أرتـادُ مـن حُلُـمِ
وخيـالٍ لـو سـرى لِخَبَـا مـا بصـدرِ الصـبِّ مـن ضَـرَمِ
فسـقى الله مضـاجِعَنَا بـين طلـحِ الجـزعِ[5] والسَّـلَمِ[6]
وبكـى بـاكي الغمـامِ بـها بـين مُنـهلّ ومنسـجمِ[7]

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٠٦ .

(٢) إضم : بالكسر ثم الفتح وميم ، ماءٌ بين مكة واليمامة ، وقيل وادٍ بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة ، قال ابن السكيت : إضم وادٍ يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر ، وهو أيضاً جبلٌ بين اليمامة وضربة ، وذو إضم ، جوف بين مكة واليمامة به ماء ، وأماكن يقال لها الحناظل ، انظر : معجم البلدان ، ١/٢١٤ .

(٣) ذو سلم : وادٍ ينحدرُ على الذنائب ، والذنائب أرضُ بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة ، انظر : معجم البلدان ، ٣/٢٤٠ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١٠٧ .

(٥) طلح الجزع : الطلح بالفتح ثم السكون ، والحاء المهملةِ وهو شجر أم غيلان ، له شوك معوج ، وهو من أعظمِ العضاه شوكاً وأصلبه عوداً ، وأجوده صمغاً ، والطلح في القرآن العظيم (الموز) وقيل غير ذلك ، وهو موضعٌ بين اليمامة ومكة . انظر : معجم البلدان ، ٤/٣٨ .

والجزع : منعطف الوادي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزع) .

(٦) السَّلَم : بالتحريك ، ذو سلم ، ووادي سلم بالحجاز ، قال الشاعر (وهل تعودنَّ ليلاتي بذي سَلَمِ) .

وسَلَم الريان باليمامة قريبٌ من الهجرة ، والسَلَم في الأصل شجر ورقه بالقَرَظ الذي يدبغ به ، وبه سمي هذا الموضع ، وقد أكثر الشعراء من ذكره ، انظر : معجم البلدان ، ٣/٢٤٠ .

(٧) منسجم : سائل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجم) .

ثم يشكو العمر الذي (أدنى إلى الهرم) [١] ، إلى أن يقول[٢] :

لا ينـــالُ الـــدَّهرُ مـــن جهـــتي ... وبـــــإبراهيمَ مُعْتَصِـــــمي

وقد يقوى الصوت البدوي في مقدِّمات النسيب أكثر ، كما وجدنا في قصيدة مدح لابن الأبَّار يقول في مطلعها[٣] :

أتجحَدُ قتلي ربَّةُ الشَّنفِ[٤] والخـرصِ[٥] ... وذاكَ نجيعي[٦] في مخضَّبَها الـرَّخصِ[٧]

وفيها يصفُ المحبوبة ، وينسبُ هواه لها نسبةً عذريَّةً فيقول ((عمومٌ من البلوى بها عامريَّةٌ)) [٨] ، ثم يصفها وصفاً بدويًا فيقول[٩] :

تلـوثُ علـى بـدرِ التمـامِ لثامَهـا إذا ... الوشيُ[١٠] زرَّتهُ[١١] على الغصنِ[١٢] والدَّعصِ[١٣]

من اللاّئي يهوى القصرُ لو قُصِـرَتْ بِـهِ ... فتاباهُ للبيتِ المطنَّبِ[١٤] والـخُـصِّ[١٥]

(١،٢) ديوان ابن خفاجة ، ص١٠٨ .

(٣) ديوان ابن الأبّار ، ص٣٤٩ .

(٤) الشّنف : الذي يلبس في أعلى الأذن ، والذي في أسفلها القرط ، وقيل الشنف والقرط سواء ، انظر : اللّسان ، مادة (شنف) .

(٥) الخرص : القرط بحبّة واحدة ، والخرص حلقة صغيرة من الحلي وهو من حلي الآذان ، انظر : اللّسان ، مادة (خرص) .

(٦) النجيع : الدم ، انظر : اللّسان ، مادة (نجع) .

(٧) الرخص : الناعم اللين ، انظر : اللّسان ، مادة (رخص) .

(٨،٩) ديوان ابن الأبّار ، ص٣٥٠ .

(١٠) الوشي : من الثياب معروف ، انظر : اللّسان ، مادة (وشيَ).

(١١) زرَّته : شدَّته ، انظر : اللّسان ، مادة (زرر) .

(١٢) الغصن : غصن الشجر ، انظر : اللّسان ، مادة (غصن) ، وأراد به قوامها .

(١٣) الدعص : قورٌ من الرمل مجتمع ، انظر : اللّسان ، مادة (دعص) وأراد به ردفها.

(١٤) المطنب : المشدود بالأطناب أي الحبال ، انظر : اللّسان ، مادة (طنب).

(١٥) الخصّ : بيت من شجرٍ أو قصب ، وقيل البيت الذي يسقف عليه بخشبة ، وسمي خصّاً لأن فيه من الخصاص ، وهي التفاريج ، انظر : اللّسان ، مادة (خصص).

ويدعو بــها الينبــوعُ[1] للعــبِ وســطَهُ فتــهجرهُ للحســوِ[2] مــؤثرة المــصّ[3]
شمائــــلُ أعرابيّـــــةٌ في اعتياصِـــــهَا[4] أَمَطْنَ عــن الحــبِّ المبَـرح والمحـص[5]

وهي صورةٌ مغرقةٌ في البداوة ، فالمحبوبة تعافُ القصرَ والينبوع ، إلى الخيمة والحسو ،وقد فسَّر هذا تفسيراً جليلاً حين قال[6] :

(شمائلُ أعرابيَّةٌ في اعتياصِهَا)

وهو تفسيرٌ شاملٌ بعيدٌ ، ينسحبُ على ما في الشعر الأندلسيّ من بداوة ، تعيدُ الشعر إلى أصله ومنبعه ، لأنَّ الشمائل الأعرابيَّة عصيَّةٌ على الترويض ، ولذا وجدنا الشعر الأندلسيّ كثيراً ما يهجرُ القصورَ إلى الخيمةِ والوتد ، ووصفِ الأعراب والبوادي ،وهي الشمائل التي جعلت النَّغم البدوي يرتفع في مقدّمات المدح ، ومنها النسيب ، ولعلَّ ابن الأبَّار لم يصف حبًّا وأعرابيّةً عشقها ، بقدر ما كانت هذه الأعرابيَّة مثالاً لما هي عليه شخصيته ، وشخصيَّةُ الكثيرين غيره ، التي تجنح للبداوة ، وتميل إلى القديم ، ولذلك يذكر الشاعر في القصيدة : (الشدَّ والتقريب والوخد والنصّ) [7] ، كما يذكر (نجد) و(النعامى)[8] ، ثم يذكر طيب العيش بدار المزن[9] ، إلى أن يبدأ المدح فيقول[10] :

كأنَّ جَنَاهَا من جــنى العــيشِ بعــدَهَا ليحيى بن عبد الواحد بــن أبي حفــصِ

وقد يأتي النسيبُ مقدّمةً للمدح ، دون أن يتداخل في المعاني والإشارات والصُّور مع معاني المدح ، بالتلميحات التي يضمِّنها الشاعر هذه المقدِّمة ، كما

---

(١) الينبوع : الجدول الكثير الماء ، وكذلك العين ، انظر : اللّسان ، مادة (نبع) .
(٢) الحسو : شرب القليل من الماء ، انظر : اللّسان ، مادة (حسا) .
(٣) المصّ : الترشُّف ، انظر : اللّسان ، مادة (مصص) .
(٤) اعتياصها : صعوبتها وتشدُّدها ، انظر : اللّسان ، مادة (عوص) .
(٥) المحص : الشديد ، انظر : اللّسان ، مادة (محص) .
(٦-١٠) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٥٠ ، يقول : سقى الله دارَ المزن .

وجدنا في الأمثلة السابقة ، ومن ذلك أيضاً قصيدةٌ لابن هانئ يقول في أوَّلها[1] :

تظلَّمَ منَّا الحبُّ والحُبُّ ظالمُ ... فهل بين ظلاَّمينِ قاضٍ وحاكمُ

ويضمِّن ابن هانئ مقدِّمته صورةً بدويَّة يذكر فيها تجاوب الوحش من الظباء مع محبوبته أسماء التي شبهها بالبانةِ والعانك في البغامِ والنشيج ، وشبَّه حفيف قلوب العشَّاق حولها ، برفرفة أجنحةِ القطا ، فقال[2] :

ولمَّا التَقَتْ أحاظُنَا ووشائنا ... وأعلنَ سِرُّ الوشيِّ ما الوشيُ كاتمُ

تأوَّه إنسيٌّ من الخِدْرِ ناشجٌ[3] ... فأسعَدَ وَحشيٌّ من السِّدرِ باغمُ[4]

وقالت : قطاً سارٍ سمعتُ حفيفَه ، ... فقلتُ : قلوبُ العاشقين الحوائمُ

سلُوا بانةَ[5] الوادي أأسماءُ بانةٌ ... بجرعائِه[6] أم عانكٌ[7] متراكمُ

ويتخلَّصُ ابن هانئ من النسيبِ تخلُّص البدو من الشعراء ، فيتركُ ذكر الهوى إلى ذكر الممدوح ، ويصحو عن الشوق كما صحا ابن سُلمى[8] ، يقول ابن هانئ[9] :

إذا خُلَّةٌ بانت لهونا بذكرها ... وإن أقفرتْ دارٌ كفتنا المعالمُ

(١،٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٣٧ .

(٣) ناشج : النشيج أشدُّ البكاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشج) .

(٤) باغم : بغام الظبية صياحها إلى ولدها بأرخم ما يكون صوتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (بغم) .

(٥) البانة : ضربٌ من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بون) .

(٦) الجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، انظر : اللسان ، مادة (جرع).

(٧) العانك : الرمل الكثير المجتمع ، انظر : اللِّسان ، مادة (عنك) .

(٨) في قوله :

صحَا القلبُ عن سلمى وأقصر باطله ... وعُرِّيَ افراس الصِّبا ورواحلُه

ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص١١٣ .

(٩) ديوان ابن هانئ ، ص٣٣٧ .

وقد يستفيقُ الشَّوقُ بعد لجاجةٍ وتَعْدى على البُهمِ العتاقِ[1] الرَّواسمُ

وقوله : ((إذا خُلَّةٌ بانت لهوًى ...)) يشبه قول لبيد بن ربيعة[3] :

فاقطعْ لبانةَ من تعرَّض وصلُهُ ولشرُّ واصلِ خلَّةٍ صرَّامُها

ويعني به ((أنَّه شرٌّ من وصلك مَن قطعك بلا ذنب))[4] وهو ما سمَّاه ابن رشيق ((المجاراةُ في المحبَّة))[5] وابن هانئ بعد أن يستفيق من الشوق ، يدلف إلى المدح الذي يقول في أوَّله[6] :

وتغدُو على يحيى الوفودُ ببابِهِ كما ابتدرتْ أمَّ الحَطيمِ[7] الرَّواسِمُ

ويتوالى المدح ، دون توالٍ في الصُّور البدويَّة ، ولكننا نجد ابن هانئ ينظر إلى قول توبة الحميري في نسيبه بليلى الأخيليّة[8] :

فلو أنَّ ليلى الأخيليَّةَ سلَّمت عليَّ ودوني جندلٌ[9] وصفائحُ[10]

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزَقا[11] إليها صَدَى من جانبِ القبرِ صائحُ

---

(١) العتاق : فرس عتيق رائع كريم بين العتق ، انظر : اللِّسان ، مادة (عتق) .

(٢) الرواسم : الرسم ضربٌ من السير سريعٌ مؤثر في الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسم) .

(٣،٤،٥) العمدة ، ابن رشيق ، ١٢٥/٢ .

(٦) ديوان ابن هانئ ، ص٣٢٨ .

(٧) أم الحطيم : مكّة ، والحطيم في مكّة ، ما بين الركن والباب ، وقيل هو الحجر ، سمّي به لأن البيت رُفع ، وترك هو محطوماً ، وقيل لأنَّ العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب ، فبقي حتى حطم بطول الزمان ، انظر : اللِّسان ، مادة (حطم) .

(٨) الأشباه والنظائر ، ١٦٧/٢ .

(٩) الجندل : الحجارة ، انظر : اللِّسان ، مادة (جندل) .

(١٠) الصفائح : حجارة رقاق عراض ، انظر : اللِّسان ، مادة (صفح) .

(١١) زقا : صاح ، انظر : اللِّسان ، مادة (زقا) .

فيقول ابن هانئ[1] :

فلـــو أنـــي في مُلْحَـــدٍ[2] ودعـــوتني لقامـــتْ تُفـــدِّيكَ العظـــامُ الرَّمـــائمُ[3]

وهو بيتٌ يحملُ إشارة بدويَّة إلى الهامةِ والصَّدى[4] ممَّا كان في معتقداتِ العرب .

وقد يأتي الشعراء الأندلسيُّون في مقدّماتِ المدحِ بصورةِ فتاةِ الخدر ، وهي صورةٌ تتردّد كثيراً في هذا الشعر ، وقد ذكرنا سابقاً ـ في فصل النسيب ـ أنَّها طريقةٌ في الشّعر اتخذها الشعراءُ لبيان قوتهم ومنعتهم وجسارتهم على ما يريدون ، وأنَّ الصَّعب يسهِّل الوصول إليه قلبٌ شجاع ، متتبعين في ذلك دقائق الصُّورة الأولى لهذه الفتاةِ الممنَّعة عند امرئ القيس .

ومن الأمثلة على ذلك قصيدةُ مدحٍ لابن الزَّقَّاق يقول في أوَّلها[5]:

سَـــفَرتْ وريعـــانُ التـــبلُّجِ مســـفرٌ فلـــم أدرِ أيُّهمـــا الصـــباحُ الأنـــورُ

وفيها[6] :

مقصـــورةٌ بيضـــاءُ دونَ قبابِهَـــا هنديَّـــةٌ[7] وأســـنَّةٌ[8] وســـنَّورُ[9]

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤١ .

(٢) ملحدٍ: الشقّ الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، انظر : اللّسان ، مادة (لحد).

(٣) الرمائم : العظام البالية ، انظر : اللّسان ، مادة (رمم) .

(٤) الصدّى : طائرٌ يخرج من رأس الميت إذا بلي ويُدعى الهامة ، وإنما كان يزعم ذلك أهل الجاهلية ، وقد كانت العرب تقول : إنَّ عظام الموتى تصير هامةً فتطير ، وكان أبو عبيدة يقول : إنهم كانوا يسمّون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بلي الصدى قال أبو داود :

ســـلط المـــوت والمنـــون عليـــهم فهـــم في صـــدى المقـــابر هـــامُ

انظر : اللّسان ، مادة (صدي) .

(٥،٦) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص١٦٢ .

(٧) هنديَّة : السيوف إذا حملت من بلاد الهند ، انظر : اللّسان ، مادة (هند) .

(٨) الأسنة : الرماح ، انظر : اللّسان ، مادة (سنن) .

(٩) السنَّور : رئيس القبيلة ، والسيد ، والسنوَّر جملة السلاح وخصّ به بعضهم الدروع ، وقيل الحديد كلّه ، انظر : اللّسان ، مادة (سنر) .

وسوابحٌ خاضَتْ بها البُهْمُ الوغى لمَّا طمى بحرُ الحديدِ الأخضرُ
في مأزقٍ يلتاحُ فيه للظُّبَا برقٌ وينشأُ للعجاجِ كنهورُ[(١)]

فحشد الشاعر في الصُّورة السابقة ألفاظاً تشيدُ كلُّها بمنعةِ أهلها وقوّتهم ، فدونها بحرٌ أسودٌ من حديدٍ متلاطمٍ ـ وأراد به السلاح ـ ملأ الجوَّ عجاجاً حيث شبَّه السيوف بالبروق ، وغبار المعركة المتراكم بالسَّحاب ، وهو ما يذكّرنا بقول بشار المشهور[(٢)] :

كأنَّ مثارَ النَّقع فوق رؤوسهم وأسيافَنَا ليلٌ تهاوى كواكِبُه

ويمضي ابن الزقاق في القصيدة إلى أن يقول[(٣)] :

يا ربّة الخدرِ المنَّعِ والتي أسَرَتْ فنمَّ[(٤)] على سُرَاها العنبرُ
ما هذه الجردُ العتاقُ[(٥)] وهذه السُّمرُ الرّقاقُ وذا القَنَا المتأطّرُ[(٦)]
أوما كفتكِ معاطفٌ ومراشفٌ وسوالفٌ كلٌّ بهنَّ معفّرُ

ويلفتنا هنا ؛ أنَّه لمّا وصف قوَّةَ أهلها ، فذكر السيوف والقنا والحديد ، ثم انتقل بعد ذلك إلى وصفها هي ؛ ظلَّت الصُّورة عنده في إطار السلاح ، فشبَّه عينيها بالسيوف المجردة للقتل ، وقوامها بالرِّماح المتعطفة المتثنيَّة ، ومن هذا الوصف انتقل الشاعر إلى الحديث عن شجاعته هو وفروسيته ، فقال[(٧)] :

سأقيمُ عذرَ السَّمهريّ فإنَّما[(٨)] تدمي لحاظُكِ لا الوشيجُ[(٩)] الأسمرُ

---

(١) كنهور : من السحاب المتراكب الثخين أمثال الجبال ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنهر).
(٢) ديوان بشار بن برد ، ص٤٦ .
(٣) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص١٦٢ .
(٤) نمَّ : أظهر ، اللِّسان ، مادة (نمم) .
(٥) الجرد العتاق : السيوف المجرّدة المسلولةُ من أغمادها ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرد).
(٦) المتأطّر : المتحنّي ، المتعطّف ، انظر : اللِّسان ، مادة (أطر) .
(٧) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص١٦٣ .
(٨) السمهريّ : الرُّمح الصليب العود ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمهر) .
(٩) الوشيج : شجر الرماح ، وقيل هو أصلب الرماح ، انظر : اللِّسان ، مادة (وشج).

ولــئن خَشَــتْ زُرقُ الأســنةِ بعــدها طعنـــاً حشـــاي فميتـــةٌ تتكـــرَّرُ

فكانت الميتة واحدة ، بسيوف أهلها القاتلةِ له ضغناً ، أو بسيوف حسنها التي تقتله حبًّا ، ولذا جاءت الصُّورة في وصف أهلها ، ووصفها ، مليئةً بمشاهد السلاح والقوَّةِ والعتاد ، وكلُّها معانٍ تغنّى فيها بجسارته ، ثم تخلَّص من المقدّمة إلى المدح ، الذي خلا من صور البداوة ، فقال[1] :

ليقــوِّمَنَّ صَــغَا الحــوادثِ مــن بــني عبد العزيــزِ بــهـــا وســيمٌ أزهــرُ

فكان الفخرُ بالنفس ، من خلال التغني بالشجاعة على خوض الغمرةِ والوصول لفتاتِهِ ، مدخلاً للتغنّي بفضائل غيره وهو الممدوح .

وابن الزَّقّاق في قصيدة أُخرى يقول في أوَّلها[2] :

لعمر أبيها ما نكثـــتُ لـــهـــا عهــدًا ولا فارقَــتْ عــيني لفرقتــها السُّــهدَا

أتأمرني سُــعدى بــأن أهجــرَ الكَــرى واعصي على طَوعي لأجفَانِهَــا سُــعدَى

برئتُ إذاً من صحبةِ الرّكبِ والسُّــرى ولا عرفت إبلي ذميلاً[3] ولا وخــداً[4]

ووصف في هذه القصيدة أيضاً كيف طرقَ خدر فتاتِهِ بليل[5] ، وتغنّى بشجاعته في الوصول إليها[6] :

وأدهــمَ مــا عارضــتُ شــعلةَ بــارقٍ بســيفي إلاّ عــارضَ اللّيــل مســودّاً

ثم انتقل من خلال الفخر بنفسه إلى المدح فقال[7] :

لأهجرَ أرضِــي واصــلاً درجَ السُّــرى إلى أرض قــومٍ تنبــتُ العــزَّ والمجــدا

---

(١) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص١٦٣ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص١٣٢ .

(٣) الذميل : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللّسان ، مادة (ذمل) .

(٤) الوخد : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللّسان ، مادة (وخد) .

(٥،٦،٧) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص١٣٣ .

إذا لم تبلّغـــكَ الجيـــادُ إلى العُـــلا فـــلا حفـــظَ اللهُ المطهَّمـــةَ[1] الجـــردَا
ســـتجعلُ بـــين الحادثـــاتِ إذا دَجَـــتْ وبين أسودٍ مـــن بـــني أســـدٍ سَـــدَّا[2]

فجاءت صورة فتاة الخدر الممنَّعة التي وصل إليها الشاعر وخاض في سبيل الوصول إليها المهالك ، طريقةً أو وسيلة لبيان القوَّة والقدرة على اجتياز المصاعب ، والوصول إلى المعالي ، وساداتِ القوم ممَّن يصعب الوصول إليهم (أسودٌ) ومنهم الممدوح .

ولعلَّ نفسَ الفخرِ عند الشعراء الذي يبدأون به مدحهم ، ظاهراً ، أو مبطناً خلف أستارِ المعاني والصُّور ، يشي بالذَّاتيةِ في النفسيَّةِ العربيَّة ، التي ترى أنَّها مستحقةٌ للمدح مثل غيرها ، ولذلك ينتشي الشعراءُ بالفخر في كثير من بدايات قصائد المدح ، ثم يعمدون إلى مدح سواهم .

وقد تأتي في مقدّمة المدح ، صورة فتاةِ الخدر متعلِّقةً بموضوع القصيدة أكثر ، فنجدُ الشاعر يقدّم لمدحه بما يشي بمطالبَ أو نـوايـا ، أو نـوازع للشاعر ، أو صفاتٍ للممدوح ، ونجد في الشعر علاقةً قويَّة بين المطلع والمقصد ، فمن ذلك مثلاً ؛ قصيدةٌ لابن زيدون مدح فيها ابن جهور بعد أن أحاطت بالشاعر الفتن والدَّسائس[3] ، وأوَّلها[4] :

أمـــا علمـــتْ أنَّ الشـــفيعَ شـــبابُ فيقصـــرَ عـــن لـــومِ المحـــبِّ عتـــابُ

وضَمَّن المقدمة وصفاً بدويّاً لفتاةِ خدرٍ ممنَّعة يهون في سبيل الوصول إليها المسير ، وتُقْطَع الصحارى والقفار ، وفيها يقول :

---

(١) المطهمّة : الحسنة التامة ، انظر : اللّسان ، مادة (طهم) .

(٢) وفي الهامش أن الممدوح في القصيدة والذي لا تعرف إلاّ كنيته ((أبو بكر)) ينتسب إلى بني أسد ، وقد يكون أبـا بكـر بن أسود الذي كان قاضي قضاة الشرق ، انظر : هامش الديوان ، لعفيفة الديراني ، ص١٣٥ .

(٣،٤) ديوان ابن زيدون ، ص٣٦٦ .

وقلَّ لـهـا نضوٌ[1] برى نحضَـهُ[2] السُّرى وبـهماءُ[3] غُفْلٌ[4] الصحصحانُ[5] تُجابُ[6]
إذا ما أحسَّ الرَّكْبُ وجهاً مَضَوْا لـه فهـانَ علـيهم أن تخِبَّ[7] رِكـابُ
عَروبٌ[8] الاحَتْ من أعاريبِ[9] حِلَّةٍ[10] تجـاوبَ فيهـا بالصـهيلِ عِـرابُ[11]
غيـارى مـن الطَّيـفِ المعـاودِ في الكـرى مشيحونَ[12] من رجمِ الظنـونِ غِضَـابُ

ويتوغَّل ابن زيدون في الصُّورة البدويَّة ، فيصفُ الأهل الغيارى ، والحروب التي قد تنشب في سبيل الوصول إليها ، يقول[13] :

وماذا عليهـا أن يُسـنِّيَ[14] وَصـلَها طعَـانٌ ، فـإن لم يغنِنَـا فضِـرابُ
ألم تـدرِ أنَّـا لا نُـرَاحُ لريبـةٍ إذا لم يُلَمِّـع بـالنجيعِ خَضـابُ
ولا ننشقُ العطـرَ النَّمـومَ[15] أريجُـهُ إذا لم يُشَعْشَعْ[16] بالعجاجِ مَـلابُ[17]

---

(١) النضو : الهزيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .
(٢) النحض : اللحم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نحض) .
(٣) البهماء : البادية التي لا يستبين طريقها ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهم) .
(٤) غفل : مجهولة ، لا علامة فيها ولا أثر عمارة من الأرض والطرق ، انظر : اللِّسان ، مادة (غفل) .
(٥) الصحصحان : الأرض الجرداء المستوية ذات حصى صغار ، ليس بها شجر ولا قرار للماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (صحح).
(٦) تجاب : تقطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوب).
(٧) تخبّ : تعدو ، انظر : اللِّسان ، مادة (خبب).
(٨) العروب : المرأة المتحببة لزوجها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرب).
(٩) الأعاريب : البدو ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرب) .
(١٠) الحِلّة : القوم النزول ، انظر : اللِّسان ، مادة (حلل) .
(١١) العراب : الخيل التي ليس فيها عرق هجين ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرب).
(١٢) مشيحون : حذرون متأهبون للمدافعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيح) .
(١٣) ديوان ابن زيدون ، ص٣٦٩ .
(١٤) يسنّى : يسهّل ، انظر : اللِّسان، مادة (سنا) .
(١٥) النموم : الساطع ، الظاهر رائحته ، انظر : اللِّسان ، مادة (نمم) .
(١٦) يشعشع : يختلط ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعع) .
(١٧) ملاب : طيبٌ أو زعفران ، انظر : الهامش لعلي عبد العظيم ، ص٣٦٩ .

فقابل في الصُّورة بين :

الحرب : (طعان) ، (ضراب) في سبيل الفوز بالوصال : (وصلها) ، وبين القتال : (النجيع) يعقبه الراحة : (نُرَاح) ، وبين الغبار : (العجاج) يتلوه الطيب : (العطر النموم) ،ممّا دلَّ به على أن الوصول إلى الراحة والدَّعة وطيب العيش لا يكون إلاّ بقتالٍ وخوضِ أهوال ، ولذا وصف بعد ذلك أنَّ منعتها ، وقوَّة أهلها ، لم تصدَّه عن مراده ، فقال[1] :

وكم راسلَ الغيرانُ يهدي وعيدَه فما راعهُ إلاّ الطروقَ[2] جوابُ
ولم يثننَا أنَّ الربابَ عقيلةٌ[3] تساندُ سعدٌ[4] دونها وربابُ[5]
وأن رُكِزَتْ حولَ الخدورِ أسنَّةٌ وحفَّت بقبٍ[6] السابحاتِ[7] قبابُ[8]
ولو نذِرَ[9] الحيَّان غِبَّ السُّرى[10] بنا لكرَّت ((عُظالى))[11] أو لعاد ((كُلابُ))[12]

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٣٦٩ .
(٢) الطروق : الساري ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرق) .
(٣) العقيلة : المرأة المخدّرة الكريمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقل) .
(٤) سعد : اسمٌ لقبائل عربيَّة شتّى ، انظر : اللِّسان ، مادة (سعد) .
(٥) الرباب : أحياء ضبة سموا بذلك لتفرقهم لأن الرِّبة (الفرقة) ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربب) .
(٦) القبّ : الخيل الضامرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبب) .
(٧) السابحات : الخيول ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبح) .
(٨) القباب : الهوادج ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبب) .
(٩) نذر : نذروا بهم علموا بسيرهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نذر) .
(١٠) غبّ السُّرى : عقب المنير ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (غبب) .
(١١) عظالى : يوم من أيام العرب المعروفة بين بكر وتميم ، انظر : اللِّسان ، مادة (عظل) .
(١٢) كُلاب : اسمُ ماءٍ كانت عنده وقعةُ العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلب).

ويمعن ابن زيدون في الصُّورة البدويَّة ، فيصف زيارته لها رغم الخطر ، ويصفها أيضاً وصفاً بدويًّا فهي بضَّةٌ (يعذبها عضُّ السَّوار) [١] ذات (نقاب) [٢] (ميلاءَ الوشاحِ) [٣] (كعاب) [٤] ، ثم يصف وصالها ، إلى أن يتخلَّص إلى مدح ابن جهور فيقول : ((كأنَّ أباةَ الشمسِ [٥] بشرُ ابن جهورٍ)) [٦].

وفي هذا المدح ينتقل من صورة المحبوبة الممنَّعةِ التي تهون في سبيلها المشاق ، إلى صورة الممدوح الذي يحلو في وجوده الحسدُ والضغائن ، يقول [٧] :

فدتيكَ كم ألقى الفواقِرَ [٨] من عِداً ... تراهم ــ لنيرانِ الفسادِ ــ ثقابُ
عفا عنهم قدري الرفيعُ فأهجروُا [٩] ... وبايَنهم [١٠] خُلْقِي الجميلُ فعابُوا
وقد تسمعُ الليثَ الجحاشُ نهيقَها ... وتُعلي إلى البدرِ النباحَ كلابُ
إذا راقَ حسنُ الرَّوضِ أو فاحَ طيبُه ... فما ضرَّهُ أن طنَّ فيه ذُبابُ
فلا برحَتْ تلكَ الضغائنُ إنَّها ... أفاعٍ لها بينَ الضلوعِ لِصابُ [١١]

فكانت المقدّمة البدويّة للمدح ، لصورة فتاة الخدر ، تمشي بمقابلةٍ في هذه الصورة بين المحبوبةِ الممنَّعة التي أحاط بها الأهلُ الغيارى فلم ينثنِ الشاعر عنها ، والممدوح الذي حفَّ به الكائدون الحاسدون ، ولم يترحَّل ابن زيدون

(١-٤) ديوان ابن زيدون ، ص٣٧١ .

(٥) أباة الشمس : شدّة الحر ، انظر : اللّسان ، مادة (أبت) .

(٦) ديوان ابن زيدون ، ص٣٧٣ .

(٧) ديوان ابن زيدون ، ص٣٨١ .

(٨) الفواقر : جمع فاقرة ، وهي الدَّاهية ، انظر : اللّسان ، مادة (فقر) .

(٩) أهجروا : تمادوا ، انظر : اللّسان ، مادة (هجر) .

(١٠) باينهم : ناقضهم ، انظر : اللّسان ، مادة (بين) .

(١١) لصابٌ : التصاق ، انظر : اللّسان ، مادة (لصب) .

عنه ، ويعطينا ابن زيدون في القصيدةِ مقابلةً أُخرى بين المحبوبة التي تجود بالوصلِ ، فتأتيه متنحّيَةً عن أهلها ، غير آبهةٍ بالوعيد[1] :

ومسعفةٍ بالوصلِ إذ مربعُ الحمى لها ـ كلّما قِظْنَا[2] الجَنَاب[3] ـ جَنَابُ[4]

والممدوح الذي يعطي ويمنح دون طلب رغم وجود حسدةِ الشاعر في بلاطه[5] :

غنيٌّ عن الإبساس[6] درُّ نوالِهِ إذا استنزلَ الدرَّ البكيءَ[7] عصابُ[8]

ويستلهم الشاعر هنا الصُّورة البدويَّة لحلبِ الناقةِ واستدرار اللبن ، فيتخذها نقيضاً للممدوح الذي يُعطي دون أن يُستدرَّ عطاؤه أو يُطلب .

وتستهوي ابن زيدون الصورة البدويَّة لفتاةِ الخدر ، ويستلهم من هذه الصورة التي تظهر فيها ممنَّعةً مطلوبةً ، مرغوبةً ، مفدَّاةً ، عزيزةً على قومها ، فيجعل منها ما قد يكون مقابلاً للممدوح الذي يطلبه الكثيرون ولا يجترئ على لقائه والفوز برضاه سوى صاحب قلبٍ شجاع .

ومن الأمثلة الأُخرى على ذلك قول ابن زيدون من قصيدةٍ مدح بها المعتضد ملك إشبيلية عند قدومه إليه بعد هربه من ابن جهور في قرطبة ، والمعتضد ملكٌ ذو دهاءٍ وصرامة ومهابة ((وجملة أمر هذا الرجل أنَّه كان أوحدَ عصره

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٣٦٧.

(٢) قظنا : القيظ : صميم الصيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (قيظ).

(٣) الجنّاب : بالفتح موضع في أرض كلب بين العراق والشام ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ١٦٤/٢.

(٤) جَنَابُ : متنحيةٌ عن قومها ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنب).

(٥) ديوان ابن زيدون ، ص٣٧٤ .

(٦) الإبساس : الطلب ، وأصله أن يمسح ضرع الناقة ليسكّنها فتدرَّ اللبن ، وهو من قولهم للناقة بس بس ، لتدر وتحلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (بسس) .

(٧) البكيء : القليلةُ اللبن ، انظر : اللِّسان ، مادة (بكأ) .

(٨) العصاب : شدُّ فخذي الناقة لتدرّ اللبن ، وتحلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عصب).

شهامةً ، وصرامةً ، وشجاعةَ قلبٍ ، وحدَّةَ نفس . . . . وكان قد استوى في مخافته ومهابته القريبُ والبعيد . . .)) [1] ، وقد قال ابن زيدون قصيدته المدحيَّةَ قادماً للمعتضد سنة ٤٤١هـ ، وبدأها بهذا المطلع الذي نجده اختصاراً للغاية والمراد ، وفيه يقول[2] :

للحُبِّ في تلك القبابِ ـ مَرَادُ[3] لو سَاعَفَ الكلفَ المشوقَ مُرادُ

ليُغْرِ هواكِ فقد أجدَّ حمايةً لفتاةِ نجدٍ فتيةٌ أنجادُ[4]

فبدأ القصيدةَ بنسيبٍ بدويّ جعل فيه من يحبُّ فتاة خدر ، وعقيلة سرب (أعقيلة السرب المباح لوردها) [5] نجديَّة ، يحميها فتيةٌ أنجاد ، ثمَّ وصف ، ما كان حول خبائها من عيون وحرَّاس ، فقال[6] :

إن يعدُ[7] ـ عن سمرات[8] جزعكِ[9] ـ سامرٌ[10] في كلّ مطَّلعٍ لهم أرصادُ

ثم خرج من وصف الصبابة ، وشكوى الهوى في ذكر الشوق ، والسقم . . . وما إلى ذلك إلى وصف قدرته على الوصول لما يريد[11] :

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لأبي محمد عبد الواحد المراكشي ، تحقيق : دكتور صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٦م ، ص٧٣ ، ٧٤ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، ص٤٤٧ .

(٣) المراد : الموضع الذي تروده الإبل وهو المرعى تختلف فيه مقبلةً ، مدبرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (رود) .

(٤) أنجاد : شجعان غالبون ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجد) .

(٥،٦) ديوان ابن زيدون ، ص٤٤٨ .

(٧) يعدُ : يصرف ، انظر : اللِّسان ، مادة (عدا) .

(٨) سمرات : جمع سُمْرة ، وهو شجرة الطلع ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمر).

(٩) الجزع : منعطف الوادي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزع).

(١٠) السامر : المجتمعون بليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمر).

(١١) ديوان ابن زيدون ، ص٤٥٢ .

أصبُو إلى وردِ الخدودِ إذا عدَت جُردٌ تبلّغني جناهُ وِرادُ
وأرَاحُ للعطرِ السَّطوعِ أريجُه إن شيبَ بالجسدِ العطيرِ جسَادُ[1]
عزمٌ إذا قصدَ الحمى لم يثنِه أنَّ القنا من دونه أقصادُ

ومن هذا النَّفَس المنتشي بالقدرة على الوصول إلى العزيز الممنَّع ، والرغبة في غايةٍ سامية احتشد ابن زيدون للوصول إليها ، يدلف للمدح فيقول[2] :

إن اغتربْ فمواقعُ الكرمِ الذي في الغربِ شِمتُ بروقَه أرتادُ
أو أنأ عن صيدِ الملوكِ بجانبي فهم العبيدُ مليكُهُمْ عبَّادُ

ولذا ؛ فقد يكون ابن زيدون أراد بالمقدمة البدويَّةِ التي وصف فيها محبوبةً بعيدةَ المنال ، نال وصلها بعزمه ، مقابلةَ الصُّورة بالمعتضد الملك المُهاب الذي فرَّ إليه الشاعر وطلب إجارته ، ووصلت به همَّتُه إليه ، فأنشد في بلاطه .

وفي القصيدة يُسهب ابن زيدون في وصف ملوك العرب الأشدَّاء السابقين له ، مشبّهاً ابن عبَّاد بهم كـ (المنذرين) و (المحرَّق) و (جذيمة) و (النعمان)[3] في استعراض مميّز لثقافة الشاعر الملمَّة بتاريخ العرب ، وجعل من المعتضد ممثّلاً لصفات الملوك السابقين مجتمعَةً ، فقال[4] :

قد أُلِّفتْ أشتاتُهم في واحدٍ إلاّ يكُنهُمْ أمَّةً فيكادُ

ثم يأتي ابن زيدون بتشبيهٍ بدويٍّ أراد به الإشادة بأصالةِ آل عبّاد الذين يتحدَّرون من لخم[5] ، فقال[6] :

بيتٌ تودُّ الشُّهبُ في أفلاكها لو أنَّها لبنائِه أوتادُ

---

(١) الجساد : الزعفران ، انظر : اللّسان ، مادة (جسد) .
(٢) ديوان ابن زيدون ، ص٤٥٣ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص٤٥٤ .
(٤) المصدر السَّابق ، ص٤٥٥ .
(٥) انظر : المعجب ، المراكشي ، ص٧٢ .
(٦) ديوان ابن زيدون ، ص٤٥٨ .

ممدودةٌ بلهى[1] النّدى أطنابُه[2] مرفوعةٌ ـ بالبيضِ[3] ـ منه عمادُ
متقادمٌ إلاّ تكُنْ شمسُ الضُحى لِدةً[4] له ، فنجومها آرادُ[5]

فجاء بوصف بديعٍ لمجدٍ وقوّة وكرم ، جمعه في صورة خيمةٍ أوتادها النجوم ، في إشارةٍ إلى علوّ النسب ورفعته ، وحبالها الندى والكرم ، وعمودها السيوف والقوّة ، وكان هذا التشبيه البدويّ مرتبطاً بصورة المحبوبة في القباب ، التي يتعذّر الوصول إليها إلاّ لمن يملك قلباً شجاعاً كابن زيدون[6] .

وهكذا قد تأتي صورةُ الغزل أو النسيب في مقدمة قصيدة المدح ، مفهومٌ منها في ثنايا القصيدةِ أو بين طيّاتِ المعاني أن المراد ممدوحٌ لا محبوب ، كأن

---

(١) اللها : جمع لهوة ، ولهيَّة ، وهي أفضل العطايا وأجزلها ، انظر : اللِّسان ، مادة (لها) .
(٢) أطنابه : الحبال التي يشد بها الخباء ، انظر : اللِّسان ، مادة (طنب) .
(٣) البيض : السيوف ، انظر : اللِّسان ، مادة (بيض) .
(٤) اللِّدة : الترب ، وهو الذي ولده معه ، وأكثر ما يكون في المؤنث ، انظر : اللِّسان ، مادة (ترب) .
(٥) آراد : الرَّأدُ رونق الضحى ، وقيل هو بعد انبساط الشمس وارتفاع النهار ، انظر : اللِّسان ، مادة (رأد) .
(٦) وابن زيدون عندما بدأ القصيدة بقوله :
للحُبِّ في تلكَ القبابِ مَرَادُ لو ساعدَ الكلفَ المشوقَ مُرادُ
أفصح في نهايتها عن مُرادِهِ من الممدوح ، فقال :
فلأسحبَنْ ذيلَ المنى لي ساحةٍ إلاّ أوفِّ بها المنى فأُزادُ
وليستفيدنَّ السناءَ مع الغنى عبدٌ يفيدُ النُّصحَ حينَ يُفادُ
ولأنتَ أنفسُ شيمةً من أن يُرى لنفيسِ أعلاقي لديكَ كسادُ
وقوله (يفيد النصح) تعريضٌ بطلب وزارةٍ ، نالها بعد ذلك ، إذ أصبح من جملة وزراء المعتضد ، وكان لقبه (ذو الرِّياستين) ، انظر : المعجب ، المراكشي ، ص٧ .
فصورة المحبوبة الممنَّعة التي كان لابن زيدون في حبها مَراداً ، لو ساعده الأملُ لبلوغ الهدف في الغاية ، قد تكون مقابلةً لصورة المعتضد الملك القويّ ، الذي دانت له الرقاب ، وكان لابن زيدون في بلاطه أملٌ ـ رفادة ووزارة ـ وقد يكون في صورة السّعي الدؤوب لبلوغ البدويَّة الممنَّعة ، سعيٌ للوصول إلى مجدٍ وسيادة .

يتضمَّن المعنى إشاراتٍ نفسيَّةٍ ،أو مطالبَ ملفوفة بغلالةِ الغزل الرقيقة أراد بها الشاعر مدحاً ،أو تلطَّف فيها بالطلب بما يشي بذلك في صورة نسيب .

وكما قد تشي مقدّمة النسيب بنوايا ومطالب كما وجدنا في الأمثلة السابقة ، فإنه قد يقدّم الشاعر لمدحه بنسيبٍ بدوي ، ثم يذكر بعد ذلك أنه كنّى بالمحبوبةِ عن الممدوح ،ومن ذلك قول ابن زُمْرُك من قصيدةٍ مدح فيها ابن الخطيب فشبَّه المحبوبة بظبيةٍ من نجد :

(وفي السِّرب من نجدٍ تعلَّقت ظبيةً)[1]

ثم قال فيها[2] :

أسكّانَ نجدٍ جادَها واكفُ الحَيَا ... هواكم بقلبي منجدٌ ومغيرُ

ويا ساكني بالأجرعِ الفردِ من منى ... وأيسرُ حظٍّ من رضاكِ كثيرُ

ثم يصف الشاعر فيضَ الدُّموع ، والبرق ، والصَّبا ، والذكرى ، والبين ، والفراق[3] ، فإذا استحكم معنى الغزل أو النسيب في نفوس المتلقين ، وجدناه يقول[4] :

إلى كم أرى أكْني ووجدي مصرِّحٌ ... وأخفي اسمَ من أهواه وهو شهيرُ

أمنجدَ آمالي ومغلي كاسدي ... ومصدرَ جاهي والحديثُ كثيرُ

وهكذا نجدُ . . .أن مقدّماتِ النسيب في قصيدة المديح ، قد تكون مدخلاً يشدُّ به الشاعرُ الأسماع والقلوب إلى الإنصاتِ للنشيد ، لما في صورة المرأة ، ووصف العواطف تجاهها من إغراء ، يدفعُ المنشدَ للتغنّي ، كما يهزُّ نَفْس المتلقّي للسَّماع ،ممَّا كان مقدّمةً مُثلى لموضوع المدح ،التي قد تأتي ـ أيضاً ـ مغلَّفةً بغلالةِ الطلب ،متواريةً رغباتُ الشاعر فيها وغاياته خلف صورةِ محبوبةٍ مثالٍ ، وامرأةٍ هويها ، فهانت لأجلها الصعاب .

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٥ .

(٢،٣،٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٦ .

ومن أكثر مقدّمات المديح شيوعاً في الشعر الأندلسيّ إضافةً للنسيب وصف الارتحال ؛ لأنَّ ((الرحلةَ ومعاناة أهوالها قد تكون من أهمّ ما يهيئُ لقضاء أوطارِ الشعراء كما يقول ابن قتيبة وخاصَّةً إذا أحسن الشاعر الانتفاع بهذا العنصر في القصيدة ...))[1].

ومقطع الرحيل في مقدّمة المدح ارتحالٌ بالشعر نفسه إلى الممدوح ، فهذه المقدّمة في معظمها طريقةٌ بدويَّةٌ شعريَّة يربط فيها الشاعر بين عالم الانتشاء الذاتي في النسيب بوصف العشق والصبابة ، وفي الرحلة بوصف الجسارة على تخطّي المفاوز ، إلى عالم آخر يتغنّى فيه الشاعر بالممدوح ، والمعروف أن النفس العربيَّة نفسٌ أبيّةٌ تنزع إلى التغنّي بالذات ، ولذلك كان شعر المدح في معظم مقدّماته متحدِّراً من ذلك ، بوصفِ الارتحال وشقائِهِ ومخاوف الصَّحارى ممَّا يسعى به الشاعر إلى أكثر من الحصول على العطايا والهبات ؛ ألا وهو استحقاقُها ، وأنَّه مؤهَّلٌ بجدارةٍ لهذا النَّوال ، لأنَّ الجسارة والقوّة تستحقان الإعجاب ، فمقطع الرحيل ((من أكثر المقاطع انشداداً إلى الفخر))[2] لأنَّه ((في هذا المقطع يواجه الخطر ويعرِّض النفس للتهلكة في مواجهة الشدائد بل إنه في هذا المقطع يمتحنُ النفس بحملها على كبير التصبُّر ومجالدة الصعاب ، بعد أن كانت قد استرسلت مع التنعُّم والتمتُّع واللَّهو ...))[3]، ولذلك كان من أهمّ عناصر الرحلة التي تكثر في مقدّمات المدح ، وصفُ المخاطرِ والمهالك التي يتعرَّض لها المسافر في الصحارى والقفار ، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة لابن درّاج قدّم لها بالرحلة للممدوح ، وخصَّ بالوصف مخاوفها ، فقال[4]:

---

(١) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٣٦٩ .

(٢،٣) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص١٠٤ .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص١٨١ .

أرحليَ محمولٌ على العتقِ[1] النُّجُـــبِ[2] يؤمُّكَ أم سارٍ على القــتمِ[3] النُّكــبِ[4]
يقودُ بــهــا هــادٍ إلى الأمــنِ والمــنى ويحدو بــهــا حادٍ على الخوفِ والرُّعبِ

وفي القصيدة يصف الشاعر كيف أنَّ الرواحل (طوت فلواتِ الأرضَ)[5] وكيف تتابعت عليه وعليها في هذه الرحلة الأهوال والأيام والبقاع، ومنها[6]:

فليلٌ إلى صــبحٍ، وصــبحٌ إلى دُجــى وكربٌ[7] إلى رَوحٍ[8]، وروحٌ إلى كربِ
وسهلٌ إلى حَزنٍ[9]، وحَــزنٍ إلى فــلا وسهبٌ[10] إلى بحرٍ، وبحــرٌ إلى ســهبِ

وابن درّاج عندما وصف رحلته وصعوبتها، جعل لهذه الرحلة سبباً وهو الممدوح الذي أناخَ الرِّحال في حضرته، فقال[11]:

تنــيخُ فتلْقــي في الصــخورِ كلاكــلاً تنوءُ لأرضِ المسكِ زهواً عــن التُّــربِ

وهي الغايةُ التي قصدها الشاعرُ من رحلته، أن يتبدّل بعد الشظف من العيش الذي كنَّى عنه بالتراب، نعمة ونعيماً كنّى عنهما بالمسك.

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك قصيدة نونيَّة لابن درّاج أيضاً ـ الذي تداخلت البداوة في شعرهِ مداخلات واضحة ـ يقول في مطلعها[12]:

ثنــائي عليــكَ ونعمــاكَ فينــا كواكــبُ تشــرقُ للعالمينــا

---

(١) العتق: الكريمة، انظر: اللِّسان، مادة (عتق).
(٢) النجب: البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين، انظر: اللِّسان، مادة (نجب).
(٣) القتم: ريح ذات غبار، انظر: اللِّسان، مادة (قتم).
(٤) النكب: الرياح المهلكة، انظر: اللِّسان، مادة (نكب).
(٥) ديوان ابن درّاج، ص١٨١.
(٦) المصدر السَّابق، ص١٨٢.
(٧) الكرب: الحزن والغم، انظر: اللِّسان، مادة (كرب).
(٨) الروح: الاستراحة والبرد، والرزق، انظر: اللِّسان، مادة (روح).
(٩) الحزن: ما غلظ من الأرض، انظر: اللِّسان، مادة (حزن).
(١٠) السهب: المكان الذي لا يمسك الماء، انظر: اللِّسان، مادة (سهب).
(١١) ديوان ابن درّاج، ص١٨٢.
(١٢) ديوان ابن درّاج، ص٣٤٠.

وقد جاءت الرحلة في قصيدة ابن درّاج ممتزجةً بالمدح ، وهي طريقةٌ في الشعر زاوج فيها بين صفاتِ الممدوح واستحقاقه الارتحال إليه ، فقال[1]:

فحقّاً إليكَ رحلنا المهارى[2] ... تُقاسِمُنا جهدَ ما قد لَقِينَا

أهلّةَ سَفرٍ وقفرٍ قطعنَا ... إليكَ الشهورَ بها والسِّنِينَا

نلاقي السيوفَ إذا ما فَزِعنا ... ونُسْقَى الحتوفَ إذا ما ظمينَا

فَطَوْراً نرى العيشَ ظنًّا كَذُوباً ... وطَوراً نرى الموتَ حَقًّا يَقِيْنَا

فوصفَ الشاعر نحولَ الرَّواحل ، والخوف الذي يكتنف المدلجين وجاءَ بمطابقةٍ في هذا الوصفِ بين (الظنّ واليقين) و(العيش والموت) .

وكما قد تأتي الرحلةُ مقدّمة للمدح ، أو ممتزجة به فإن الشاعر الأندلسيّ قد يمدح أولاً ثم يثنّي بالرحلة ، وفي هذه الطريقة يقول ابنَ رشيق : ((. . . ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال . . . والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة والقطعاء ، هي التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب . . .))[3] ، ومن الأمثلةِ على ذلك في الشعر الأندلسيّ ، قصيدةٌ للأعمى التطيلي بدأها مادحاً دون أن يبسط القول بمقدّمةِ نسيبٍ أو غيره ، فقال[4]:

حويتَ الشكرَ من بعدٍ وأينٍ ... وحزتَ الفخرَ من أثرٍ وعينِ

وهو بعد أن يمدح ينتقل إلى وصف الرِّحلةِ للممدوح التي جعل غايتها واضحةً منذ البداية ، فقال[5] :

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٣٤٠ .

(٢) المهارى : الإبل المهريَّة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان ، أبو قبيلةٍ وهم حيٌّ عظيم ، انظر : اللّسان ، مادّة (مهر) .

(٣) العمدة ، ابن رشيق ، ٢٣١/١ .

(٤) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٢١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢١٥ .

إليــكَ تــدافَعَتْ خــوصُ[١] المطايَــا   بِجَوْبِ الأرضِ[٢] بين وجــى[٣] وأيــنِ[٤]
بكلِّ مُقَلَّــصِ السِّــربالِ[٥] ضــربٍ[٦]   عزيــزٍ في صــروفِ الــدَّهرِ بــينِ[٧]
سَــمَا مــن جانبيــهِ إلى المعــالي   علــى خطــرٍ منيــعِ الجــانبينِ
يخــوضُ إليــكَ غمــرةَ كــلِّ هــولٍ   إذا لم يَصْلَ جــاحِمَ[٨] كــلِّ حَــيْنِ[٩]
ويخترقُ الــدُّجى جُنْحــاً[١٠] فجنحــاً   وقــد رانــتْ عليــه كــلُّ رَيــنِ[١١]
إلى أن سَــاعفتكَ بــه اللَّيــالي   علــى صــدقِ حوتــهُ بــه ومَــيْنِ[١٢]

فالشاعر هنا بدأ مادحاً ، ثم ارتحل للممدوح متغنيًّا بنفسه مفتخراً بذاته ، فهو مشمِّرٌ مستعدٌّ لخوضِ كلِّ هلاكٍ قد يعترض رحلته في دروب الحياة ومسالكها ، وهو ضربٌ ، عزيزٌ ، سامٍ إلى المعالي ، يخوض الغمار ، ويخترقُ الدُّجى ، وكلُّها أوصافٌ لصاحب قلبٍ حديدٍ ذكيّ يسعى إلى غايةٍ عزيزة ، فقد كانت الرحلة البدويَّة في الشعر طريقة للتغنّي بالذات ، وقدرة النفس على مواجهة الأهوال ، ممَّا جعل الشاعرَ هنا أهلاً للعطاء ، وقوله (مقلَّصُ السِّربال) يشبه قول زينب بنت الطثريَّة ترثي أخَاهَا يزيد[١٣] :

---

(١) الخوَص : ضيق العين وصغرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خوص) .
(٢) جوب الأرض : قطْعُهَا بالسير ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوب) .
(٣) الوجى : أن يشتكي البعير باطن خفه ، انظر : اللِّسان ، مادة (وجا) .
(٤) الأين : التعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (أين) .
(٥) السربال : القميص والدرع ، انظر : اللِّسان ، مادة (سربل) .
(٦) ضرب : أي جيّد الضرب شديد المضاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضرب) .
(٧) بين : فصيحٌ طريف ذكيّ القلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (بين) .
(٨) الجاحم : النار المتوقّدة الملتهبة ، والمكان الشديد الحرّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (جحم) .
(٩) الحين : الهلاك ، انظر : اللِّسان ، مادة (حين) .
(١٠) الجنح : جانب اللَّيل ، وقيل أوّله ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنح) .
(١١) الرين : الصَّدأ ، وران غشيَ وغطًا ، انظر : اللِّسان ، مادة (رين) .
(١٢) المين : الكذب ، انظر : اللِّسان ، مادة (مين) .
(١٣) الأشباه والنظائر ، الخالديان ، ٢/٣٣٥ .

فتى لا يُرى خـرقُ القمـيصِ بخصـرهِ ولكنَّمـا تـوهي القمـيص حمائلُـه

((وهذا عندهم غايةٌ في المدح للصعلوكِ والفارس ، بل يرونه مدحاً للعظيم القدر ، فأما الفارس فيُمدح بالنحافة فتقول : إنَّ خصره غير منتفخٍ لضُمُره فما يتخرَّقُ قميصُه في خصره لذلك ، بل تتخرَّق أكتافُه من نجادِ سيفه)) [1] ، وقول التُّطيلي (مقلِّص السِّربال) أراد به وصف نفسه بالشجاعة والقوّة والبأس ، فاختار لذلك أن يجعل قميصه مشمِّراً مرفوعاً ، وذلك كنايةٌ عن الاستعداد للحروبِ والمضيِّ لها ، والعزم والإقدام ، وهو المعنى الذي أرادته زينب عندما ذكرت التخريق ، ودليل ذلك أنَّهما ذكرا : (السيوفَ والضَّرب) ، فهذا التشبيه قد يذكر في الشِّعر عند إرادة الوصفِ بالشجاعة والبطولة ، وقد يذكر أيضاً في حالة السِّلم ، ومن ذلك قول ليلى الأخيليّة في توبة[2] :

---

(١) الأشباه والنظائر ، الخالديان ، ٣٣٦/٢ .

(٢) المصدر السَّابق ، ٤٤/١ .

((أرادت أنه يُجذب ويتعلق به للحاجات لجوده وسؤدده وكثرة الناسِ حوله ، وقيل إنما ذلك لعظم مناكبه وهم يحمدون ذلك)).

العمدة ، ابن رشيق ، ٣١٦/١ .

أمَّا السُّقم فهم لا يريدون المرض وإنَّما ((أرادوا أنَّه ساكن الأطراف والنظر العاقل والحلم ، فإذا هُيِّج للحرب زال عنه ما نعتوه به)) .

الأشباه والنظائر ، الخالديان ، ٤٤/١ .

ويُعدُّ هذا الوصف ((من أنواع الإشارة التتبيع وقوم يسمونه التجاوز وهو : أن يريد الشاعرُ ذكر الشيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدّلالة عليه ، وأوَّل من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحي فتيتُ المسك فـوقَ فراشـها نؤوم الضحى لم تنتطـق عـن تفضُّـل

فقوله (ويضحي فتيت المسك) تتبيع ، وقوله (نؤوم الضحى) تتبيع ثان وقوله (لم تنتطق عن تفضل) تتبيع ثالث ، وإنَّما أراد أن يصفها بالترفه والنعمة وقلّة الامتهان في الخدمة وأنها شريفة مكفية المؤونة)) . العمدة ، ابن رشيق ، ٣١٣/١ .

مشـــفقٌ عنـــه القمـــيص تخالـــه وسط البيــوتِ مـــن الحيـــاءِ ســـقيما

ومن هنا . . . فقد تأتي الرحلة في مقدّمة المدح باباً من أبواب التمدُّح بالذات وقدرتها على تجشُّمِ الصعوباتِ والأهوال ، يلجُ منه الشاعر إلى التغني بالممدوح ، وسواءٌ اقتحم الشاعر أهوال الرِّحلة حقيقةً أو مجازاً ، وكان يطلب بها الشاعر مالاً أو منصباً وجاهاً ، فإن الرِّحلة البدويَّة أصبحت - في معظم شعر المديح الأندلسيّ - من عناصره التي يعطي بها الشاعر لنفسِهِ أولاً قبل الممدوح أسباباً للطَّلب ويتلطَّف بها في اتخاذ الوسيلة المهذَّبةِ لاستحقـاقِ الرِّفد ، كما أنـَّها قد تكون بما دلَّت عليه من فخرٍ طريقةً كريمةً يجعل فيها الشاعر نفسَهُ موازيةً للممدوح في الصِّفاتِ التي سيخلعها عليه من شجاعةٍ وبأس ، وكأنه يحفظُ بهذا الفخر كرامته ، ويحيطُ شعره بحياضٍ يرفعه عن الاستجداء ، فكان مقطع الرَّحيل في الشِّعر ((من أشدِّ المقاطعِ فاعليَّةً في بناءِ المدحيَّات ، فهو واسطة الوصلِ بين ماضٍ تمتزجُ فيه المسرَّاتُ بالأوجاع والهموم ، ومستقبلٍ يفزع إليه الأنا بهمّةٍ تحدو به الآمال عبر صحراء شاسعةٍ آهلةٍ بالمخاوف والمهالك والمعاطب))[1]، وهنا تتخذ الرحلة البدويَّة في الشعر معاني الجدّ والاجتهاد، والأخذ بأسباب السعي، وترك الدّعة والاستكانة، إلى الاستعانة بكلِّ ما يحـقـق الآمـال والأحـلام ، وهـو المعـنـى الـذي لخَّصه ابن فُركون في قوله ((فيُهدَى لها حادٍ وتُحدى الأيانقُ)) [2] ، وهي المعاني التي تضمَّنها الشعر البدويّ القديم ، ولا زالت تنفخُ روحَها في معظم الشعر العربي الذي يتَّخذ من قالب الارتحال صورةَ الجسارةِ والقوَّة ، وتجاوزِ المصاعب إلى ما يتمنَّاه الخاطر ، وتسعى له النفوس ، يقول ابن فُركون[3] :

---

(١) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص١٠٥ .

(٢،٣) ديوان ابن فركون ، ص٢٠٧ .

فيا راكبَ الوجناءِ[1] يبتدرُ[2] السُّرى ... بها وهو للحيِّ الحِلالِ مفارقُ
ولم يثنِهِ من بارقِ الأفقِ نيِّرٌ ... كعذبِ الثَّنايا ما العُذيبُ وبارقُ؟!
ولا راقَه خيْفٌ به الوجدُ كامنٌ ... ولا شاقهُ طيفٌ على البعدِ طارقُ
ولكنَّه يبغي المحامدَ والعُلى ... فيُهدى لها حادٍ وتُخدى أياتقُ

فذكر الشُّعراءُ من عناصر الرحلة البدويَّة المسير في اللَّيل موصولاً بالنَّهار، وكأنَّهم بذلك يلّخصون معنى السعي الدؤوب للوصولِ إلى الغايةِ المنشودة، ومن ذلك قول ابن عبدون في مقدمة قصيدةِ مدح وصف فيها رحلةً سرى فيها الرَّكبُ ليلاً، فقال[3]:

مضوا يظلمونَ اللَّيلَ[4] لا يلبسونهُ[5] ... وإن كانَ مسكيَّ الجلابيبِ ضافيَا[6]
يؤمُّون بيضاً في الأكنَّةِ[7] لم تزلْ ... قلوبُهم حُبَّا عليها أداحيَا[8]

فذكَرَ الشاعر طول اللَّيل والسُّرى، وجعل الغاية العزيزة المطلوبة التي يهون في سبيلها كلُّ شيء وتؤمُّها النفوسُ الساعية المجدَّة، في صورة فتاةِ خدرٍ بيضاء منَّعمة مكنونة، تسعى لها القلوبُ والأفئدة، وتطلبها، فهنا لخّص لنا

---

(١) الوجناء: الناقة التامة الخلق الغليظة لحم الوجنة، صلبة شديدة، انظر: اللِّسان، مادة (وجن).

(٢) يبتدر: يسرع، انظر: اللِّسان، مادة (بدر).

(٣) ديوان ابن عبدون، ص١٨٨.

(٤) يظلمون اللَّيل: ينقصونه، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ (الكهف:٣٣)، أي لم تنقص منه شيئاً، انظر: اللِّسان، مادة (ظلم).
وأراد الشاعر أنه ينقصونه بالإسراع، فيجعلونه يمضي بسرعة.

(٥) لا يلبسونه: لا يتمتعون به، ويسترون فيه، انظر: اللِّسان، مادة (لبس).

(٦) شبه اللَّيل في سواده وطوله، بالثياب الضافية المشابهة في لونها سواد المسك.

(٧) في الأكنّة: أي مستورة مصانة، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصافات:٤٩)، أي مستورةٌ من الشمس وغيرها، والأكنة الأغطية، انظر: اللِّسان، مادة (كنن).

(٨) الأداحي: مبيض النعام في الرَّمل، وذلك لأنَّ النعامة تدحوه برجلها ثم تبيض فيه، وليس للنعام عش، وأدحيها موضعها الذي تبيض فيه، انظر: اللِّسان، مادة (دحا).

ابن عبدون ـ في هذه الصُّورة البدويَّة ـ معنى أن يأتي الشعراءُ بصورة المرأة في أوَّليات الشعر ، وبخاصَّة بيضة الخدر العزيزة ، ولماذا كانت الرحلة ومشاقُّهَا سهلة في سبيل الوصول إليها ، وذلك أنَّ الصُّورة قد تعني أشمل من امرأة ورحلة صحراء ، فهي رحلة غاياتٍ ، وسعي للعزيز من الأماني والرَّغبات ، وقد مضى ابن عبدون بعد ذلك في تصوير الرحلة المهولة التي وصلها بوصف الممدوح ، فقال[1] :

وأغربــةُ الظلمــاءِ[2] تــنفضُ بينــهم ... قوادِمَهــا مبلولــةً والخوافِيَــا
إذا مرقُوا من بطنِ ليلٍ رقَــتْ بــهم ... إلى ظهــرِ يــومٍ عزمــةٌ هــي ماهِيَــا
وإن زعزعتهم رَوعةٌ زعزعــوا الــدُّجى ... إليهــا كمــاةٌ والريــاحَ مَــذَاكيَا[3]
ولــو أنــَّها ضَــلَّت لكــانَ أمامَهــا ... سَــنَا عُمَــرٍ في فحمــةِ اللَّيــل هاديَــا

والوصول للممدوح في نهاية الرِّحلة غاية الشاعر المادح التي وصف في سبيلها شدَّة الجهد والمشَّقة ، والتي قد يتَّخذ الشاعر لهذا الوصف صورة النُّوق الضامرة التي أصبحت كالأسهمِ والأهلّة ، يقول لسان الدين بن الخطيب[4]:

يا زاجرَ العــيسِ أنضــاءً[5] مضــمَّرةً ... كأنَّهــا أســهمٌ يمــرقْنَ عــن فُــوَقِ[6]
أهلّــةً مــا لــهــا عهــدٌ بمنزلــةٍ ... من كل منخسِفٍ[7] الجثمانِ مُنمَحِــقِ[8]

---

(١) ديوان ابن عبدون ، ص١٨٩ .

(٢) أغربة الظلماء : شدة سوادها ، انظر : اللّسان ، مادة (غرب) ، وقد شبَّه الليل في ظلمته بالغربان السود .

(٣) المذاكي : الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان ، انظر : اللّسان ، مادة (ذكا) .

(٤) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٦٩١/٢ .

(٥) أنضاءً : مهزولة من السفر ، انظر : اللّسان ، مادة (نضا) .

(٦) الفوق : من السهم موضع الوتر ، انظر : اللّسان ، مادة (فوق) .

(٧) منخسف : من خسوف القمر أي غؤوره ، وذهابه ، انظر : اللّسان ، مادة (خسف) .

(٨) منمحق : ناقص ، انظر : اللّسان ، مادة (محق) .

أرِحْ رِكابَكَ قد أوْرَدْتَ في نَهَلٍ وقد ظفرتَ بحبلِ اللهِ فاعتلقِ

وقد يتخذ الشعراء من الصُّورة البدويَّة للحديث الذي يتسامر به الرُّكبان يقطعون به السكون والصمت ويقصِّرون به اللَّيل وسيلة للمدح ، فيجعله الشاعر حديثاً عن الممدوح ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

لله ذكــرُك مـا ألــذَّ حديثَـه تُحـدى بـه طـيَّ الفـلاةِ الأينـقُ

مسـكٌ بـأكوارِ[2] الحـدُاةِ مفتَّـقٌ[3] شـهدٌ بـأفواه الـرُّواة مُـرَوَّقُ

ويقول ابن زُمْرُك أيضاً مردِّداً المعنى نفسه في قصيدةٍ أُخرى[4] :

بـه تَغمـرُ الأنـواءُ[5] كـلَّ مفـوَّهٍ ويحدوُ به مـن كـانَ بـالقفرِ سَـارِيَا

وقوله ((به تغمرُ الأنواء)) أراد به عطاياه ورفده .

ومن أكثر عناصر الرحلة تداولاً في مقدّمة المدح ـ ممَّا قد يكتفي به الشاعر عن وصفِ النُّوقِ والسُّرى ومهابة الصحراء ـ وصفُ الإناخةِ في رحاب الممدوح ، وفي ذلك يقول ابن رشيق ((ولربَّما قالوا بعد صفةِ الناقةِ والمفازة ، إلى فلان قصدت ، وحتى نزلتُ بفناء فلان ، وما شاكل ذلك))[6]، وفي هذا المقام أو عند هذه الغايةِ من الرحلةِ ـ التي قد يكتفي بها الشاعر عن كثيرٍ من عناصر الرحلةِ البدويَّة في المدح ـ نجد معاني : التعريس ، والإناخة والرِّفادة ، والوفادة ، والقرى ، وغيرها من مكارم الأخلاق البدويَّة العربيَّة العريقة ، التي نَشَأت عليها الأجيال المتعاقبة ، والتي قامَ الإسلام بإتمامها ، ومن ذلك . إعطاء الوافد بغيته ، وإكرام الضيف وإجارته ، وإعانته ، ومن هذا المدخل البدويِّ المرتبط بالعادات والأخلاق العربيَّةِ البدويَّةِ القديمة ، كان هذا العنصر في

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٢٦٣.
(٢) الأكوار : جمع كور وهو الرَّحل ، انظر : اللِّسان ، مادة (كور).
(٣) مفتق : فتق المسك بغيره ، استخراج رائحته بشيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق).
(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٥١٧.
(٥) الأنواء : النجوم التي يعرف بها نزول المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوأ).
(٦) العمدة ، ابن رشيق ، ٢٣٩/١.

الرحلةِ من أهم المداخل إلى قصيدة المدح لأنَّ الشاعر يحاكي فيه طريقة الأجداد البدو في استثارة نخوةِ العرب القادرين على الإعانةِ ، ويتمثَّلها كوسيلةٍ لطلب الرِّفدِ من ممدوحٍ ملكٍ ، أو وزيرٍ ، أو قائدٍ ، أو صاحبِ منصب فهو ينيخ راحلته بالشِّعر في رحاب القصور إناخة الوافد البدويِّ ناقته في حمى شيخ القبيلة ، يقول ابن درّاج[1] :

ويرمـــدُ في هجـــيرِ القـــيظِ جَفْنِـــي ... فأجعـــلُ مـــن ســـوادِ اللَّيـــلِ كُحْلِـــي
لكيمـــا تعلمـــي في أيِّ مـــاوى ... من الملـــكِ الرَّفيـــعِ وضـــعتُ رَحلِـــي

ويقول في هذا المعنى أيضاً ابن زُمْرُك[2] :

فيا زاجـرَ الأظعـانِ وهـي ضـوامرٌ ... بغـيرِ الفَـلا والـوحشِ لم تتـأنَّسِ
إذا جئـتَ مـن دارِ الغـنيِّ بربِّـه ... مناخَ العُلاَ والعـزِّ فاعقـلْ وعـرِّسِ[3]

وفي معنى التعريس والإناخة يقول ـ أيضاً ـ ابن حربون الشلبي في مقدّمة قصيدة يذكر فيها مسامرة الرواحل ، وتعليلها بقرب الوصول[4] :

عللّـوا العـيسَ بـاقترابِ الـدِّيارِ ... وانظروا هـل بَـدا لَهَـا مـن مَنَـارِ
وارفعُـوا للمـدى بأيـدي المطايـا ... لُمَّـةَ اللَّيـلِ عـن جـبينِ النَّهـارِ

ثم يقول[5] :

هـذه حضـرةُ الإمـامِ فحطُّـوا ... وأنيخُـوا منـها بـدارِ قـرارِ

وتتردَّد في شعر المديح الأندلسيّ الكثير من صور الإناخةِ والمقام البدويَّة ، وقد اكتسب هذا المقطع أهميته في بناء القصيدة ، لأنَّه يصلُ بين المقدِّمة والغرض ، ويخلِّصُ الشعر إلى المدح والطلب ، واكتسب أهميته من حيث

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٦٢٦ .

(٢) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٣٣ .

(٣) عرّس : التعريس ، النزول في المعهد ، انظر : اللّسان ، مادة (عرس).

(٤،٥) ديوان ابن حربون الشلبي ، ص١١٦ .

المعاني في أنَّه يخاطبُ مكارم الأخلاقِ عند الممدوح التي اتَّخذ الشاعرُ لمخاطبتها وطلب الرفد والعطاء ، هذه الصورة البدويَّة القديمة ، المستلهمةِ من التراث العربيّ الأدبي[1].

ومن هنا يتخذ مقطع الإناخة في مقام الممدوح وسيلةً للاسترفاد والطلب ، وطريقةً للتخلُّص إلى المدح .

وقد يأتي هذا الاسترفاد والطلبُ في الشعر الأندلسيّ مشوباً بالترفُّع أو موسوماً بسمةِ الجلال الذي يقرن فيه الشَّاعرُ المدح بالفخر ، ويكون طلبه مشفوعاً بوصفٍ ذاتيٍّ للقوّة والجسارة التي تجعله أهلاً للعطاء ؛ ومن الأمثلة على ذلك قصيدةُ مدح لابن حريق البلنسي ذكر فيها قدرته على تخطّي الصعاب ، وتجاوز المهالك في سبيل الوصولِ إلى بغيته ، متلبِّساً في ذلك صورة البدويِّ الشجاع الذي يرحلُ في الفيافي على الناقة القويّة ويقاتلُ عن حماه وشرفه بنبلهِ وسيفه ، يقول فيها[2]:

سارمي بنَبْلِي ذائداً عن حمى نُبلي ... وأغترُّ حظّي[3] بالعديديَّة[4] الفُتُلِ[5]

---

(١) يقول زهير بن أبي سلمى :

فزادكِ أنعماً وخلالكِ ذمٌّ ... إذا أدنيت رحلي من سنان

ديوان زهير ، ص٢٥٩ .

ويقول المثقّب العبدي :

ثنيتُ زمامَها ووضعتُ رحلي ... ونمرقةً رفدتُ بها يميني

. . . . . .

إلى عمرٍو ومن عمرٍو أتتني ... أخي النجداتِ والحلمِ الرَّصينِ

ديوان المثقب ، ص٦٦ .

(٢) زاد المسافر وغرَّة محيا الأدب السافر ، أبو بحر التجيبي ، تحقيق : محمد بن شريفة ، الدار البيضاء ، ط . الأولى ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م ، ص٢٩٦ .

(٣) أغترّ حظّي : آخذه على غرَّةٍ وغفلةٍ منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرر).

(٤) العديديَّة : الإبل العديدية نسبة إلى فحل منجب يقال له عيد ، وقيل إنها نسبة لبني العيد ، انظر : اللِّسان ، مادة (عود).

(٥) الفتل : المندمجة المرافق ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتل).

قديراً على نيلِ الأماني عَنْوَةً   إذا لم تُنِلْنِيها اللّيالي على رِسلِ
إذا سَأَلَتْ مني القبائلُ نسبةً   كتبتُ لها أصلي على ظُبَّتيْ نَصْلي

فجاء بصورة الإبل القويّة النجيبة ، لأنه أراد عزماً قويّاً ، سعى به إلى نيل الأماني كما ذكر ، وأضاف إلى هذه الصورة ، معاني الإصرار في أخذه الأماني عنوةً أي بالقوّة ،والاعتداد بالنفس وشجاعتها في انتسابه إلى سيفه .

ومن هذه الأماني الإناخة في حضرة الممدوح الذي جعل ابن حريق وجهة الرحلة إليه ، فقال[1] :

وما كنتُ لولا أنتَ إلاَّ مُزمَّماً   ركابي مثيراً عن بلنسيةٍ رَحْلي
ومستبدلاً أهلاً سِوَاها ومترلاً   وإن كانَ فيها مترلي وبها أهلي
فأمرُكَ لي بالمُكثِ فيها إقامةٌ   وصلتُ بها أهلي وصُنْتُ بها إبلي

وقوله (وصنتُ بها إبلي) فيه صورة بدويَّة ، لمعاني الرفد والإجارة ، التي جعل بها الممدوح يكرم ضيفه ، ويحفظه ، حفظ شيخ القبيلة البدويّ من لجأ إليه ، واحتمى به ، وطلبه واستعانه ، وهي من مكارم أخلاق العرب .

وإذا كان ابن حريق قد اغتر حظَّه ، أي أخذه بالقوّة والعزم ، الذي ألبسه صورة الإبل القويّة ،فإنه قد تأتي بعض مشاهد الرحلة في قصيدة المدح في الشعر الأندلسي ، حافلةً بصورِ الانكسار والضعف الإنساني ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما نجده في قصائدَ مدحية لابن درّاج ، الذي لمسنا في بعض شعره توسُّلاً في الطلب ، حتّى وجدنا أن من أهم عناصر الرحلة عنده ، هو تصوير الصراع النفسي بين هوى النفس ومتطلبات الحياة التي سوف يمضي بها للممدوح ،ومن الأمثلة على ذلك قصيدة مدح قدّم لها بشكوى الشَّيب[2]:

أضاءَ لها فجرُ النهى فنهاها   عن الدَّنِفِ المُضنى بحرِّ هواها

---

(١) زاد المسافر ، التجيبي ، ص٢٩٦ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص٨٢ .

ووصف الرُّسوم[1] :

وبالـــديارِ اللَّهـــو أقـــوتْ رســـومُها ومحَّـــت معانيهـــا وصـــمَّ صَـــدَاها

ودَعَا لها بالسقيا (دعوت لها سقيا الحيَا) [2] ، وَوَصف الرحلة التي كان فيها متيقظاً (وأحيي نفوس الركبَ من ميتةِ الكرى)[3] والصحراء الموحشةِ والإبل المهزولة[4] :

وقلـــت لنضـــوٍ في الزمـــام رذيَّـــةٍ تشـــكى إلى الأرض الفضـــاءِ وجاهـــا

عسى راحـــةُ المنصـــورِ تعقـــب راحـــةً وحـــتمٌ لآمـــالِ العفـــاةِ عســـاها

ثم وصف مغالبته بكاءَ الزوجة والأولاد[5] :

ولله عزمـــي يـــومَ ودَّعـــتُ نحـــوَهُ نفوســـاً شَـــجاني بينُهـــا وشَـــجَاها

وربَّـــةُ خـــدرٍ كالجمـــانِ دموعُهـــا عزيـــزٌ علـــى قلـــبي شـــطُوطُ نَوَاهـــا

وبنـــتُ ثمـــانٍ مـــا يـــزال يُـــروعني على النَّأيِ تـــذكاري خفـــوقَ حشَـــاها

إلى أن يقول[6] :

وأقســـمَ جـــودُ العـــامريِّ ليرجعـــنَّ حفيًّا بـــهـــا من كـــانَ قبـــلُ جَفَاهـــا

وهذا النَفَسُ كثيرٌ في شعر ابن دَرّاج ، فهو في قصائد يصفُ رجلاً قويًّا يخوض مهالك الرحلات ، ويستحق العطاء ، ولكنه في أُخرى ـ وهي كثيرة ـ نجد صورة رجلٍ أرهقه الشيبُ وكثرةُ الأبناء ، والتغربُ في البلاد فشكا وألحَّ في استخدام هذه الصّورة في شعر المدح ، ومنها قوله في قصيدةٍ[7] :

قالت وقـــد مـــزجَ الـــوداعُ مـــدامعا بمـــدامعٍ وترائبـــاً بترائـــبِ

أتفـــرّقٌ حـــتى بمـــنزلِ غربـــةٍ كـــم نحـــنُ للأيـــامِ نهـــبةُ ناهـــبِ

(١،٢) ديوان ابن درّاج ، ص٨٢ .

(٣) المصدر السَّابق ، ص٨٤ .

(٤،٥) ديوان ابن درّاج ، ص٨٥ .

(٦) المصدر السَّابق ، ص٨٦ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص١٩٥ .

والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[1] عنده ؛ ومنها قوله في أواخر قصيدةٍ مدحٍ متخذاً من صورةِ القطاةِ وأفراخها ومتاهة الرحلة طريقةً لإظهار حاجته عند الممدوح الذي يبدو أن حاجبه ردَّه عن بابه ، لأنَّه يقول[2] :

ويـا شـامتاً أنّـي طريـدُ جنابِـه ... ليخـزِكَ أنّـي حزتُـه بـين جنبيَّـا

ويـا حاجبـاً قـد ردَّ طـرفي ودونَـهُ ... تأمَّـل تجـدْهُ وهـو إنسـانُ عينيَّـا

ثم وصف أبناءه في صورة بدويَّة لقطا ضلَّت عن المياه وتقاذفتها البيد ، وأهلكها الحرّ الذي يشبه الجمر ، فقال[3]:

وصـدقُ رجـاءٍ كلّمـا مُـتُّ رحمـةً ... على مثلِ أفـراخِ القَطَـا ردَّنـي حيَّـا

ظماءٌ ومـا يـدرون في الأرضِ مشـربًا ... سوى كبدي الحرّى ومهجـتي الظَّميَـا

وكم عَسَـفُوا بحـراً ولا بحـرَ للنَّـدى ... وخاضُوا سرابَ البيد نِهْيا[4] ولا نـهيا

وفيها[5] :

ولا خلَّةٌ إلاّ الـهجـيرُ إذا التظـى ... فكانَ لهـم جَمْـراً وكـانوا لـه شَـيَّا

إلى أن يقول[6] :

ولا صدقَ إلاّ للرَّجـاءِ الـذي سَـرَى ... فقصَّر طولَ اللَّيـلِ واسـتقربَ النَّأيَـا

وصورةُ أفراخ القطا المشبهة الأبناء الصغار تذكّر بقول الحطيئة عندما استعطف عمر رضي الله تعالى عنه بعد أن حبسه[7] :

---

(١) انظر : قصيدة ابن درّاج النونية ، التي وصف فيها مجاهدته فراق صاحبته ، ص٧٠٥.

وقصيدته الرَّائية التي يصف فيها أبناءه :

وتحـت جنـاحي مقـدمي وتعطفـي ... ثمـانٍ وعالـت بـالبنين إلى الشـطر

ويذكر فيها عددهم الكثير (أعدادُ كأنجم يوسف) ، ص٢٩٠.

(٢،٣) ديوان ابن درّاج ، ص٢٧٥.

(٤) النهي : الغدير ، انظر : اللّسان ، مادة (نهي).

(٥،٦) ديوان ابن درّاج ، ص٢٧٥ .

(٧) ديوان المعاني ، العسكري ، ٣٩/١ .

مـــاذا تقـــولُ لأفـــراخٍ بـــذي مـــرخٍ حمـــرُ الحواصـــلِ لا مـــاءٌ ولا شـــجرُ
ألقيـــتَ كاسِـــبَهم في قَعْـــرِ مظلمـــةٍ فـــاغفرْ عليـــكَ سَـــلامُ اللهِ يـــا عمـــرُ

وتأتي صورة القطاة بأفراخها أيضاً عند شاعر أندلسي آخر ، وهو الأعمى التطيلي الذي يقول[1] :

يـــا واحـــداً أفضـــالُهُ شِـــرْكَةٌ فينـــا ولكـــن مجـــدُهُ واحـــدُ
حـــولي أفـــراخٌ كزغـــبِ القطـــا ليلـــي مـــن هـــمٍّ بـــهـــم ســـاهدُ

وتأتي صورةُ القطا البدويَّة عند الأعمى التطيلي أيضاً ، في قصيدةِ مدح ، شبَّه فيها أبناءه بالأثافي الثلاث الموقدة في صدره من همٍّ عليهم ، وشبَّه نفسه بالقطاة الساهرة التي تعاف النومَ خوفاً عليهم من عوادي الدَّهر ، قال[2] :

ثلاثُ أثـافي نـارُ صـدريَ أُضْـرمتْ على واردٍ من هـمٍّ صـدري وصـادرِ
ينـامونَ عـن ليـلِ التَّمـام أبيتُـه كأنّي قطـاةٌ فـوقَ فتخـاءَ[3] كاسـرِ

وهكذا نجدُ أن الشَّاعر يحمِّل قصيده ما يريد من معانٍ وغاياتٍ قد تشي بها مقدّمة النسيب أو مقدّمة الرحلةِ وغيرها ، التي تكثر فيها العناصر البدويَّة ، أو تقتصرُ هذه العناصر البدويَّة في القصيدة المدحيَّة على مقدِّمتها ، ممَّا ذكرنا أمثلةً له .

وقد أشرنا إلى أن قصيدة المدح الأندلسيَّة جاءت في مطالعها على الغرار المشرقيّ البدويّ ، فسعى الشعراء الأندلسيُّون إلى الإجادة بالاستفادة من التقاليد الشعريَّة المتوارثة في مقدِّمات هذه القصيدة فافتتحوها بالنسيب أو الرحلة أو الطلل ، وقد عرضنا لنماذج من مقدِّمات الطلل بالتفصيل في فصل الوصف ، إلاَّ أن بعض الشعراء الأندلسيين قد جنحَ إلى التقليديَّة أكثر ، وذلك بجمع عدَّة عناصرَ في مقدّمة المدح ذكرها ابن قتيبة[4] ، فوجدنا في الشعر الأندلسي أمثلةً

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٤٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص٥٥ .
(٣) الفتخاء : العقاب ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتخ) .
(٤) انظر : الشعر والشعراء ، ص١٤ .

كثيرة لمدائح جمع أصحابها في مقدماتها بين عناصر تقليديَّة متعدِّدةٍ بدويَّةِ الصُّور ، ومن هذه الأمثلة قصيدة مدح لابن الجيّاب يقول في مطلعها[1]:

تـراءى سُحَيراً والنسيمُ عليلُ ... وللنجمِ طرفٌ بالصباحِ كليلُ

وهو مطلع رقيقٌ يصفُ عذريَّة الهوى ، الذي استخدم الشاعر لتصويره أساليب البدو ، فوصف البرق الذي يهيج الحبَّ واللَّوعة ، وربط بينه والمكان البدويَّ ، فقال[2] :

بُريقٌ بأعلى الرَّقمتين كأنَّه ... طلائعُ شُهبٍ في السماءِ تجولُ

وأضاف إلى ذلك وصفَ نَوْحُ الحمام[3] :

وغَنَّتْ على تلكَ الغصونِ حمائمٌ ... لهنَّ حفيفٌ فوقَها وهديلُ

وبكاء الغمام (وفاضت عيونُ للغمامِ همولُ)[4] ثم ربط هذه الصورة العذريَّة بوصفِ الطلل البدويّ ، فقال[5] :

سقى اللهُ ربعاً لا تزالُ تشوقُني ... إليه رسومٌ دونها وطلولُ

وجادَ رُباه ، كلَّما ذرَّ شارقٌ ... من الودقِ هتَّانٌ أجشٌّ هطولُ

ومالي استسقي الغمامَ ومدمَعي ... سفوحٌ على تلكَ العراصِ همولُ

وكما وقف الشعراء الجاهليّون ثم ارتحلوا ، كذلك فعل ابن الجيّاب ، فقال[7] :

وعاذلة باتتْ تلومُ على السُّرى ... وتُكثِرُ من تعذالِها وتطيلُ

تقولُ إلى كم ذا فراقٌ وغربةٌ ... ونايٌ على ما خيَّلَتْ ورحيلُ

وهي الرحلة التي لم يتوَّغل في ثنايا صورها البدويَّة وإنَّما اكتفى بالإشارات واللَّمحات ، وثنَّى ذلك بوصفه الغاية النفسيَّة التي جعلت الرحلة رحلة رغائب وطلبٍ ، فقال[8] :

(١،٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٥/٤٦٥ .

(٣-٨) المصدر السابق ، ٥/٤٦٦ .

ولولا اغترابُ المرءِ في طلبِ العُلاَ لما كان نحو المجدِ منه وصولُ
ولولا نوالُ ابنِ الحكيمِ محمّدٍ لأصبح ربعُ المجدِ وهو مُحيلُ

فتخلّص إلى المدح بوصف الجودِ الذي استعار له صورة المطر ، واستخدم له من معجم البداوة ألفاظ (الربع) و (محيل) ، ومن هذا التخلُّص يبدأ الشاعر مدحه ، فيأتي بأسلوب الاستدارة البدويّ ليصف به كرم الممدوح في صورة بدويَّةٍ أيضاً كثر تداولها في الشعر القديم وهي أن يكون الممدوح أجودَ من سحابةٍ مليئةٍ بالمطر ، وقد شبَّه السحابة بالإبل التي كان هديرُ الرَّعدِ فيها صوت فحولها ، وسقوطُ الغيث لبنُ النوق التي مرتها الريح ، فقال[1] :

وما جونةٌ[2] هطّالةٌ ذاتُ هيدبٍ[3] مَرَتها[4] شمالٌ حرجفٌ[5] وقَبولُ
لها زجلٌ[6] من رعدها ولوامعٌ من البرقِ عنها للعيونِ كُلُولُ[7]
كما هَدَرَتْ[8] وسْطَ القلاصِ وأُرسِلَتْ شقا شقُّها[9] عند الهياجِ فُحُولُ
بأجودَ من كفِّ الوزيرِ محمَّدٍ إذا ما توالَت للسنينِ مُحولُ

وهذه الطريقة في المدح كثيرةٌ في الشعر الجاهليّ ، منها قول النابغة الذبياني يمدح النعمان ويصفه بالجود[10] :

---

(١) نفح الطيب ، المقرّي ، ٤٦٦/٥ .
(٢) الجونة : السحابة المليئة بالمطر لاسودادها ، انظر : اللّسان ، مادة (جون) .
(٣) الهيدب : السحاب الذي يتدلّى ويدنو مثل هدب القطيفة ، انظر : اللّسان ، مادة (هدب) .
(٤) مرتها : المري مسح ضرع الناقة لتحلب ، انظر : اللّسان ، مادة (مرا) .
(٥) الحرجف : الريح الباردة ، انظر : اللّسان ، مادة (حرجف) .
(٦) الزجل : صوت رفيعٌ عال ، انظر : اللّسان ، مادة (زجل) .
(٧) كلول : تبسُّمٌ بالبرق ، انظر : اللّسان ، مادة (كلل) .
(٨) هدر البعير : ردد البعير صوته في حنجرته ، انظر : اللّسان ، مادة (هدر) .
(٩) شقاشقها : شق البرق هو الذي تراه يلمع مستطيلاً إلى وسط السماء وليس له اعتراض ، انظر : اللّسان ، مادة (شقق) .
(١٠) ديوان النّابغة ، ص٨٧ .

فمـا الفـراتُ إذا هـبَّ الرِّيـاحُ لـه ... ترمـي أواذيُّـهُ[1] العِـبرين[2] بالزَّبـدِ
يمـدُّه كـلُّ وادٍ مُتـرعٍ[3] لجـبٍ[4] ... فيه ركامٌ من الينبـوتِ[5] والخضـدِ[6]
يظـلُّ مـن خوفِـهِ المـلاحُ معتصـماً ... بالخيزرانةِ بعـدَ الأيـنِ[7] والنَّجـدِ[8]
يومـاً بـأجودَ منـه سـيبَ نافلـةٍ ... ولا يحـولُ عطـاءُ اليـومِ دونَ غـدِ

فابن الجياب صنع كالنابغة في تفضيل النابغة الممدوحَ على الفرات ، ففضَّل ممدوحه على سحابةٍ هطَّالةٍ شبَّهها بالعشارِ أو النُّوق ، والجامع بين التشبيهين عند النابغة وابن الجيَّاب أنَّهما في الأسلوبِ نفسه ، (الاستدارة) ، وفي الغرض نفسه وهو (المدح) ، كما أن التشبيه كان في صفةِ الجود وتفضيلها في الممدوح على ماءٍ عظيم شديد الانصباب .

وابن الجيَّاب بعد أن مدح ، عاد بالشعر إلى الرحلة والراحلة ، وهو إن كان أجملَ فيما سبق ، فقد زاد هنا بعض التفصيل ، فهو بعد أن وجَّه الرحلةَ للممدوح ، وصفَ الإبلَ وسيرها ، الذي حشدَ كثيراً من مفرادتِهِ البدويَّة ، دلَّ بها كلَّها على سرعة هذه الناقة وسيرها الشَّديد الحثيث ، حتّى وضع نفسه بالشعر أمام الممدوح الذي لفظته الأرضُ إليه ، فقال[9] :

---

(١) أواذيُّه : موجه ، انظر : اللِّسان ، مادة (أذي) .

(٢) العبرين : الشاطئين ، انظر : اللِّسان ، مادة (عبر) .

(٣) مترع : مملوء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ترع) .

(٤) اللجب : صوت جلبةٍ واختلاط ، انظر : اللِّسان ، مادة (لجب) .

(٥) الينبوت : شجرة شائكة ذات غصن وورق ، انظر : اللِّسان ، مادة (ينبت) .

(٦) الخضد : شجر رخوٌ لا شوك فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (خضد) .

(٧) الأين : التعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (أين) .

(٨) النجد : العرق من عملٍ أو كربٍ أو غيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجد) .

(٩) نفح الطيب ، المقّري ، ٤٦٦/٥ .

إليكَ أيـا فخـر الـوزارة أرقَلـتْ[1] برحلي هوجـاءُ[2] النَّجـاءِ[3] ذلـولُ[4]
فليـتْ[5] إلى لقيـاكَ ناصـيةَ الفَـلا بأيـدي ركـاب سـيرهنَّ ذميـلُ[6]
تسـدِّدُني سَـهماً لكـلِّ ثنيَّـةٍ[7] ضـوامرُ أشـباهُ القسـيِّ نحـولُ
وقد لفظـتني الأرضُ حتّـى رمـت إلى ذُراكَ برحلـي هوجـلٌ[8] وهجـولُ[9]
فقيَّـدتُ أفراسِـي بـه وركـائبي ولـذٌ مقـامٌ لي بـهِ وحلـولُ
وقد كنـتُ ذا نفـسٍ عـزوفٍ وهمَّـةٍ عليهـا لأحـداثِ الزَّمـانِ ذُحـولُ[10]

وقوله ((وقد كنت ذا نفسٍ عزوفٍ)) [11] أحاطَ فيه الشِّعر الذي ذكر خلاله أن الأرض لفظته للممدوح ، بحياضٍ من عزّة النفس ، ولذلك قال بعد ذلك (فكلُّ خضوعٍ في جنابك عزَّةٌ) [12] أمَّا قولُه (فقيَّدتُ أفراسي) فهو يشبه قول أبي الطيب[13] :

وقيَّـدتُ نفسـي في ذُراكَ محبَّـةً ومن وجـدَ الإحسـان قيـداً تقيَّـدا

والأمثلة كثيرة في الشعر الأندلسيّ ، على مقدّمات قصائد المدح التي تكثر فيها العناصر البدويَّة ، ومنها قصيدة مدح لابن مقانا الأشبوني بدأها بوصف

(١) الإرقال : ضرب من الخبب وهو سرعة سير الإبل ، انظر : اللّسان ، مادة (رقل).
(٢) الهوجاء : الناقة التي كأن بها هوجاً من سرعتها ، انظر : اللّسان ، مادة (هوج).
(٣) النجاء : الناقة الناجية السريعة ، انظر : اللّسان ، مادة (نجا).
(٤) ذلول : سهلة القياد ، انظر : اللّسان ، مادة (ذلل) .
(٥) فليتُ : قطعت ، انظر : اللّسان ، مادة (فلا) .
(٦) ذميلٌ : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللّسان ، مادة (ذمِل) .
(٧) ثنيّة : منعطف وطيَّة ، انظر : اللّسان ، مادة (ثني) .
(٨) الهوجل : الناقة السريعة في سيرها كأن بها هوجاً ، انظر : اللّسان ، مادة (جهل).
(٩) الهجول : المسترخية المشي ، انظر : اللّسان ، مادة (جهل) .
(١٠) ذُحول : جمع ذُحل وهو الثأر ، انظر : اللّسان ، مادة (ذحل) .
(١١) نفح الطيب ، المقّري ، ٤٦٧/٥ .
(١٢) المصدر السَّابق ، ٤٦٨/٥ .
(١٣) ديوان المتنبي ، ١٥/٢ .

الطلل وصفاً جاهليّاً بدويّاً ، فشبَّهه ببقايا الرِّداء ، وشبَّه الرَّماد بالكحل ، والنؤي بالجسد المضني ، وجعلهَ مَراحاً للوحش بعد أن كان مسكناً لمن يحبّ ، فقال[1] :

لمــــن طلـــلٌ دارسٌ بـــــاللّوى ... كحاشـــيةِ البُـــردِ[2] أو كـــالرِّدَا
رمــادٌ ونــؤيٌ ككحــلِ العــروسِ ... ورســمٌ كجســمٍ بــراهُ الـهــوَا
غــدا موسمــاً لوفــودِ البِلــى ... وراحَ مراحــاً لســربِ المهــا

وانتقل ابن مقانا من الوقوف على الطلل إلى وصف رحلةٍ بدويَّةٍ خيالية لطيفِ محبوبةٍ سرى إليه ، وصفَ بدويٍّ لرحلة ظعائن ، فصَّلَ فيها الأمكنة البدويَّة التي اجتازها ، فقال[3] :

عجبـــتُ لطيـــفِ خيـــالٍ ســـرى ... مـــن السِّـــدرِ أنّـــى إليَّ اهتـــدى
وكيـــف تجـــاوزَ جـــوزَ[4] الحجـــازِ ... وجَـــوزَ الخمـــيسِ وسَـــدْرَ[5] المـــنى
ولم يثنِـــهِ حـــرُّ نـــارِ الضـــلوعِ ... وبحـــرُ الـــدموعِ وريـــحُ النَّـــوى
فـــذكّرَ أيّامَنَـــا بـــالعقيقِ ... وليلتنـــا بـــهضـــابِ الحِمـــى

---

(١) الذخيرة ، ابن بسام ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٨٨ .

(٢) حاشية البرد : جانب البرد في طرفه هدب ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشا) .

(٣) الذخيرة ، ابن بسام ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٨٨ .

(٤) الجوز : بالفتح ثم السكون وزاي ، وفي كتاب هُذيل : جبال الجوز أودية تهامة ، قالوا في تفسير قول معقل بن خويلد الهذلي حيث قال :

لعمـــرك مـــا خشـــيت وقـــد بلغنـــا ... جبـــال الجـــوزِ مـــن بلـــدٍ تـــهامي

قيل إن جبال السراة المقاربة للطائف وهي بلادُ هذيلٍ يقال لها الجوز ، وإليها تنسبُ الأبراد الجوزيَّة ، ويقال : الجوز ، الحجاز كلّه ، انظر : معجم البلدان ، ٢/١٨٣.

(٥) سَدْر : ذو سدر موضع بعينه قال أبو ذئيب :

فذو سدر فأملاحُ

انظر : معجم البلدان ، ٣/٢٠٠ .

ثم استطرد من وصفِ زيارةِ الطيف إلى النسيب ، فوصف سرب العذارى متَّخذاً لها في الشعر مكاناً بدويًّا معروفاً وهو (سقط اللِّوى) [١] ، فقال[٢]:

أسربُ العذارى بسقطِ اللِّوى ... مشى الخيزلى أم نجومُ السَّما

برزنَ لنا عاطراتِ الجيوبِ ... ينازعنَ في الحسنِ شمسَ الضُّحى

خماصَ البطونِ مراضَ الجفونِ ... أقمنَ الشُّعورَ مقامَ الرِّدَا

وقوله (مشى الخيزلى) أرادَ به التَّثاقل والتأنِّي في المشية[٣] ، وهي من الأوصاف البدويَّة المحبَّبة في المرأة ، ممَّا يُدلُّ به على سمنها وتنعُّمها ، وفي مثل هذا الوصف قال الفرزدق : (وتمشي العشيَّ الخيزلى رخوةُ اليد) [٤] ، وبعد أن أسهب ابنُ مقانا في وصف رحلة الطيف والنسيب ، عاد فوصف رحلته هو وصفاً بدويًّا ، قال فيه[٥] :

وقد أغتدي في سبيلِ العُلا ... بذي ميعةٍ[٦] من نَتَاجِ الصَّبا

يهيمُ بذي هِمَّةٍ نازحٍ ... براهُ السُّرى مثل بري الظُّبا

كأنَّ فؤادي بوادي الغَضَا ... وقلبَ الدليلِ جناحُ القَطَا

---

(١) ذكره امرؤ القيس في المعلّقة (بسقط اللِّوى بين الدخول فحومل) .
ديوان امرئ القيس ، ص٢٢ .

(٢) الذخيرة ، ابن بسام ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٨٩ .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (خزل) .

(٤) ديوان الفرزدق ، ١/١٧١ .
وقوله مشى الخيزلى ، يشبه أيضاً قول المتنبي :
ألا كلُّ ماشيةِ الخيزلى ... فِدا كلِّ ماشيةِ الهيدبى
ديوان المتنبي ، ١/١٦٠ .
والهيدبى : ضربٌ من مشي الخيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدب) ، وأراد بهذا البيت تفضيل الخيلِ على النساء ، فقد كان مولعاً بالخيل محبّاً للسفر .

(٥) الذخيرة ، ابن بسَّام ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٨٩ .

(٦) ذي ميعةٍ : أي يذوبُ ويجري ، انظر : اللِّسان ، مادة (ميع) .

وقوله ((وقد أغتدي . . . بذي ميعة)) يشبه قول امرئ القيس في المعلقة ((وقد أغتدي . . . . بمنجردٍ))[1] ،وقد وصف ابن مقانا بعد ذلك البرقَ الذي اتخذه وسيلةً للتخلص إلى المدح ، فقال[2] :

إذا قلقلَ الرعدُ من فوقه تقلقلَ قلبي له والحَشَا
كأنَّ السحائبَ في سيرِها بنودُ المظفَّرِ يومَ الوغى

ثم مدحه بأوصاف شتَّى ،وتطرَّق إلى نعتِ جيشه بالعظمة والقوّة ، فقال[3]:

إذا سارَ يحيى إلى غارةٍ فويلٌ لأعدائه أينَمَا
بجيشين جيشٌ يهدُّ الرُّبى وجيشٌ يظلِّلُهُ في الهَوا
مطاعِمُها من شغافِ[4] القلوبِ ومطعمُها من نجيعِ الدِّما

وقوله (جيشٌ يظلله في الهوى) ، أراد به جوارح الطير التي تتبع هذا الجيش ثقةً منها بنصره ، ورغبةً في أشلاءِ العدو بعد المعركة ، وقد نظر في ذلك إلى قول النابغة[5] :

إذا ما غزا بالجيشِ حلَّق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

والأمثلة على ذلك كثيرة ، يتبيَّن لنا فيها عمقُ التأثُّر في الأندلس بالبيئةِ البدويَّة ، وبأشعارِ الأجدادِ من البدو ، فالتراثُ والتاريخ العربي البدويّ ، أساسٌ في التكوين الثقافي الروحي للإنسان الأندلسيّ الشاعر .

* * *

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٥٣ .
(٢) الذخيرة ، ابن بسام ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٨٩ .
(٣) المرجع السابق ، ق٢ ، م٢ ، ص٧٩٠ .
(٤) الشغاف : غلاف القلب ، انظر : اللّسان ، مادة (شغف) .
(٥) ديوان النابغة ، ص٤٦ .